مجلة الصحافة

العدد (37) | السنة التاسعة | ربيع 2025

من السبق إلى التأني..
العلوم الاجتماعية وإعادة اكتشاف الصحافة



معهد
الجزيرة للإعلام

محتويات العدد

الصحافة والعلوم الاجتماعية.. المهنة وهي تعيد «اختراع» نفسها

قبل سنتين تقريبا، كان منتدى كليات الصحافة في العالم العربي المنظم من معهد الجزيرة للإعلام، يناقش موضوع انفتاح الصحافة على العلوم الاجتماعية كضرورة مهنية مضادة للرؤية الرأسمالية التجارية لإنتاج الأخبار.

لم يكن استخدام كلمة «انفتاح» عشوائيا، بل مؤطرا بالجدل المستمر حول حدود الصحافة والعلوم الاجتماعية وطرق الاستخدام وتوجُّس الأكاديميين من الطبيعة الاختزالية للصحافة، وخوف الصحفيين من التعقيد والتجريد والتعالي على الوقائع من لدن علماء الاجتماع، وهو توتر وجد صداه داخل الجامعات، وفق دراسة أجرتها الدكتورة وفاء أبو شقرا، الأستاذة في كليّة الإعلام في الجامعة اللبنانيّة، حيث لا يزال تدريس العلوم الاجتماعية والإنسانية مطوقا بمقاربة أكاديمية جامدة.

من وجهة نظر العلاقة بين علماء الاجتماع والصحفيين، فإن التأثير المتبادل ينطلق من دافع التطور التكنولوجي الذي رسخ ممارسات صحفية جديدة سمتها الأساسية السرعة والإيجاز والخضوع لسلطة الجمهور وضغوطات السلطة.

يمكن حصر تأثير هذه التحولات في ارتباط قياس تأثير الصحافة بمعايير جديدة مثل الأرقام والمبيعات وحصة سوق الإعلانات التي تسمح بإجراء مقارنة مع المنافسين المباشرين لا على أساس مهني بل بهاجس تجاري محض، ثم هناك آثار التشبع من التغطيات الإعلامية للأحداث الكبرى وما قد ينتج عنه من مخاطر نزع السياق، مثلما يحدث اليوم في حرب الإبادة الجماعية في فلسطين.

لقد جرّدت هذه التحولات الجديدة الصحافة من وظائفها التقليدية في المحاسبة والمراقبة وحق الجمهور في المعرفة والمساهمة في تكريس التجارب الديمقراطية، وكان ضروريا على وسائل الإعلام التي تقاوم إغراءات السلطة والمال، أن تتبنى نموذجا جديدا يقترب من العلوم الاجتماعية والإنسانية دون أن تتبناها كحقل لديه خصوصيته.

هذا الانفتاح على العلوم الاجتماعية والإنسانية يتيح هوامش جديدة للصحفيين؛ لتأطير الأحداث المعقدة والحساسة ضمن سياقاتها الحقيقية، وتحسين جودة التغطية ودقتها، وبناء زوايا معالجة أصيلة، والتشكيك في رواية السلطة بكل أشكالها، وبفضل الاقتباس من أدواتها، تعمل هذه الرؤية على تجديد ممارسة المهنة ذاتها.

هيئة التحرير

كتاب المجلة



أنس الشعرة

طالب ماجستر مغربي بالمعهد العالي للإعلام والاتصال بالرباط، وحاصل على زمالة الجزيرة.



عمار الشقيري

كاتب وصحفي أردني، ويعمل حاليًا صحفيا أول في مجلة حبر الإلكترونية.



محمد أحداد

صحفي مغربي بمعهد الجزيرة للإعلام، صدر له «يد في ويد في النار» حول الصحافة الاستقصائية.



أحمد نظيف

صحفي وباحث تونسي. مهتم بالترجمة والعلوم الاجتماعية. مترجم في مجلة اليونسكو بباريس.



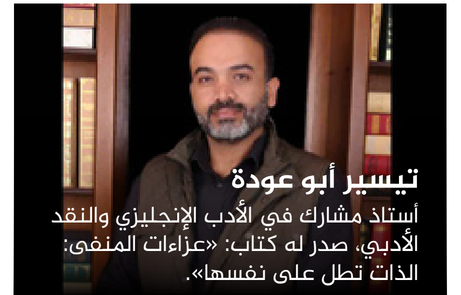
سعيد أبو معلا

كاتب ومحاضر فلسطيني في الصحافة بالجامعة العربية الأميركية.



محمد زيدان

محرر وكاتب في معهد الجزيرة للإعلام. ترجم عدة كتب إلى العربية أبرزها: «إسرائيل: تاريخ السلطة والمعرفة» لإيلان بابيه..



تيسير أبو عودة

أستاذ مشارك في الأدب الإنجليزي والنقد الأدبي، صدر له كتاب: «عزاءات المنفى: الذات تطل على نفسها».



مصعب شوابكة

صحفي ومنتج استقصائي في شبكة الجزيرة.



فتيحة زماموش

إعلامية وباحثة جزائرية، حاصلة على شهادة الدكتوراه في علوم الإعلام والاتصال.



آنا ماريا مونخاردينو

صحفية مستقلة مقيمة في لندن، تعمل على قصص التحيز الإعلامي خاصة في فلسطين.



ريما القطاوي

كاتبة صحفية مستقلّة. وطالبة ماجستير صحافة وإعلام بالجامعة الإسلامية في غزة. صدر لها «كلنا على سفر» رواية.



فداء القدرة

صحفية فلسطينية من غزة، تكتب قصصا وتقارير باللغة الإنجليزية لصالح منصات ومواقع إعلامية دولية.



المحفوظ فضيلي

صحفي مغربي، خريج المعهد العالي للإعلام والاتصال بالرباط، اشتغل بشبكة الجزيرة وقنوات الحرة.



وسام كمال

صحفية مصرية بشبكة الجزيرة الإعلامية، حاصلة على دكتوراه في الصحافة من جامعة القاهرة.

مجلة الصحافة

العدد (37) I السنة التاسعة ربيع 2025

مجلة فصلية تصدر عن معهد الجزيرة للإعلام / شبكة الجزيرة الإعلامية

المشرف العام: إيمان العامري

رئيس التحرير: منتصر مرعي

هيئة التحرير: محمد أحداد / محمد خمايسة / محمد زيدان / محمد الأغا

تصميم: إدارة الإبداع في شبكة الجزيرة الإعلامية

التدقيق اللغوي: إبراهيم منصور، أحمد تحسين

مجلة الصحافة Aljazeera Journalism Review

http://institute.aljazeera.net/ar/ajr

AJR_ Arabic@

www.facebook.com/aljazeerajournalismreview

https://www.instagram.com/ajr_arabic

ajreditor@aljazeera.net



إصدار جديد لمعهد الجزيرة للإعلام



دينامية «الاقتباس»: التأثير المتبادل بين الصحافة والعلوم الاجتماعية

أنس الشعرة

تقارب هذه المقالة مسألة «الاقتباس» بوصفها ضرورة إبستمولوجية ومنهجية، وتدعو إلى تجاوز الثنائية الصارمة بين الصحافة والعلوم الاجتماعية من خلال تبني منهج «التعقيد» الذي يسمح بفهم تداخلهما ضمن تحولات البنى الاجتماعية والمهنية. كما يجادل المقال بأن هذا التفاعل لا يُضعف استقلالية أي من الحقلين، بل يُغنيهما معرفيًا، ويمنح الصحافة مرونة أكبر في إنتاج المعنى داخل عالم تتسم فيه المعلومة بالسيولة والتدفق.

إنّ العلاقة بين الصحافة والعلوم الاجتماعية تخضع لصيرورة جدلية متلازمة ومستمرة في آن؛ فهي محكومة على الدوام بضرورة الغايات والوسائل، وهو ما يجعلها تتقاطع دائمًا على مستوى الأدوات التي يستثمرها الباحث والصحفي. وفي صميم هذه العلاقة تنبثق مسألة «الاقتباس» التي تشكل نقطة التقاء بينهما، بوصفها آلية إبستمولوجية، وليست مجرد عملية نقل وانتقال للمعلومات فقط، بل هي جزء أساس في فهم تطورها وتفاعلها. ومن هذا المنطلق، يحاجج هذا المقال عن «الاقتباس» بوصفه ضرورة لفهم التطورات الحاصلة في الصحافة والعلوم الاجتماعية اليوم، ومن جهة أخرى يسعى إلى إبراز محددات العلاقة، من خلال التمايزات الدلالية والمنهجية والميدانية بين الحقلين.

في طبيعة الاقتباس ودلالاته:

تحضر مسألة «الاقتباس» بوصفها آلية إبستمولوجية بين الحقول والعلوم بصفة ضرورية. ولمّا كانَ جوهر العلوم هو «الاقتباس» فإنّ الأنساق العلمية الكبرى التي تفرعت وراء أزمة العلوم الأوروبية (1) قد خضعت لهذا «الاقتباس» متأثرة بصلابة العلوم الطبيعية ومناهجها ونتائجها، هكذا تطورت العلوم الاجتماعية أيضًا، ولقد كانت فكرة «الاقتباس» مرحلة مفصلية في بنائها.

على هذا النحو، امتد نقاش وصل حد السجال بين الباحثين في حقل العلوم الاجتماعية وغيرها حول مدى التأثير الذي تمارسه هذه العلوم على حقول أخرى مثل: الصحافة التي تستمدُ حدودها (تعريفها) من جهةِ الممارسة فقط، هكذا في المجمل ما تخلصُ إليهِ النقاشات بينهم. (2)

لن يكونَ الجدَلُ مثمرًا في ظل أحكام مترسبة حول ما يمكنُ أن تكونَ عليه الصحافة اليوم إذا انزاحت عن وظائفها التقليدية المعهودة التي استقرت بالقوة والفعل، وهو ما تعجزُ عنه الرؤى المتمترسة حول «نقاء العلوم»، (3) وردّ أو رفض فاعلية الاقتباس.

كما لن يكونَ النقاش جديرًا - في سياق المقالة - لدحض تلك الحجج؛ لأن التأثير والتأثر تحصيل حاصل، ويزدادُ حضوره كلّما تحرر «العقل» الإبستمولوجي من فكرة «النقاء المنهجي» ومما قد يعيق ديناميّة «الاقتباس». وعلى هذا الأساس، فإن قضية الصحافة والعلوم الاجتماعية من القضايا التي ينبغي النظر فيها ضمن سياق إعادة إنتاج أبنية نظرية جديدة تكتسي فيها علاقة الحقلين تواشجًا نظريًا ومنهجيًا، قياسًا على التحولات في البنى الاجتماعية وفي التحولات الرقمية اليوم.

في غمرة هذه الدعوة، ينبغي التركيز على ديناميات الاقتباس لا التماهي - كما قد يُفهم - لأن «الاقتباس» هو ما يمكّن من إعادة النظر وتقليبهِ بوصفه ممارسة ضرورية لإبراز هذه التقاطعات الحيوية المثمرة.

ولإعطاء بُعد عملي لهذا التوجّه/ الدعوة فإنّ المناهج الاجتماعية وما تتيحهُ من أدوات، تساهم في تفسير العديد من المعطيات وتأويلها وإعادة إنتاجها بوصفها حقائق اجتماعية تعدُ مدخلًا حقيقيًا للاقتباس وللتعاطي النظري والمنهجي والمفاهيمي مع هذه العلاقة.

ومن هذا المنطلق؛ فإن النظر في الممارسات المهنية لمختلف الدوضعيات الميدانية في عمل الصحفيين اليوم، من شأنها تفسير جملة من آليات الاقتباس التي تؤطر عملهم، وتجسدُ ذلك التداخل البيني بين الحقول.

> **تعتمدُ الصحافة على نتائج العلوم الاجتماعية لتفسير مختلف الظواهر التي تتعاطى معها، وتلجأ في كثير من الأحيان في إطار وظيفتها «التبسيطية» وإيصال المعلومة إلى اختزال العديدِ من المفاهيم ووضعها في دائرة غير منسجمة مع دلالاتها المراد منها، وهو ما يثير ردود فعلٍ رافضة لهذا «الاختزال»، وهذا هو جوهر الاعتراض على هذهِ الممارسة.**

في ضرورة الاقتباس:

تعتمدُ الصحافة على نتائج العلوم الاجتماعية لتفسير مختلف الظواهر التي تتعاطى معها، وتلجأ في كثير من الأحيان في إطار وظيفتها «التبسيطية» وإيصال المعلومة إلى اختزال العديدِ من المفاهيم ووضعها في دائرة غير منسجمة مع دلالاتها المرادة منها، وهو ما يثير ردود فعل رافضة لهذا «الاختزال»، وهذا هو جوهر الاعتراض (4) على هذه الممارسة، بيد أنّ هذا الاعتراضَ ينطلق من خلفيات تفسيرية منافية لدينامية الحقول، كما أنّ

أصبح الحقل الصحفي ذاته مجالاً لإنتاجِ ظواهر من داخل بنيته، وهو ما جعله محلاً للدرس والتفسير والتنبؤ، وهو ما يعنيَ أنه يفرز ويساهم في إنتاج ديناميةٍ معرفية تساهم في إغناء حقول العلوم الاجتماعية.

“ ” “ ” “ ” “ ” “ ” “ ” “ ” “ ” “ ” “ ” “ ” “ ”

هـذا التوجـه يمنـع مـن رؤيـة البنـى الداخليـة التـي تفرزهـا الممارسـة الصحفيـة وتسـهم في إعـادة قـراءة ظواهـرها وتفسـيرها بنـاء على نتائـج أعمـال صحفيـة بلـورت إعـادة إنتـاج حقائـق اجتماعيـة أو ثقافيـة أو غيرها.

إنّ «الاقتبـاس» ليـسَ فعلًا «تسـويغيًا» لمحاولـة وضْـع الصحافة داخـل ديناميـة رمزيـة تعيـد ترتيـب مـا هـو أعلى ومـا هـو أسـفل، إنهـا هيمنـة ضيقـة فقط! تتأســس على ضرورتين:

الضـرورة المنهجيـة: تتمثـل في الأدوات التـي تسـتعمل في الإنتـاج الصحفـي اليـوم، مـن سـرد ومقـابلات ومنهجيـات التحليـل الكمـي والكيفي.

الضـرورة السيوسـيولوجية: أصبـح الحقـل الصحفـي ذاتـه مجـالاً لإنتـاج ظواهـر مـن داخـل بنيتـه، وهـو مـا جعلـه مـحلاً للـدرس والتفسـير والتنبـؤ، وهـو مـا يعنـي أنـه يفـرز ويسـاهم في إنتـاج ديناميـة معرفيـة تسـاهم في إغنـاء حقـول العلـوم الاجتماعيـة.

تشـكل هـذه الضـرورات دلالات مركزيـة في فهـم «الاقتبـاس» وتطويـر تفاعلاتـه أيضًـا، بمـا يجعـل مـن الصحافـة حـقلاً تتقاطـعُ فيـه المقاربـات والنظريـات، كمـا يسـمحُ ذلك بإعـادة إنتـاج هـذه الأدوات واختبارهـا بمـا يضمـنُ مَاهيـة الصحافة المرنـة، أي تلـكَ التـي تخضـعُ لديناميـة متفاعلـة بفعـل السـياقات والتحـولات.

«التعقيد» وديناميات الحقلين:

لفهـم التحـولات التـي تسـري بيـنَ العلـوم والحقـول خاصـة في العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، ينبغـي اسـتحضار بُعـد «التعقيـد» (5)- بوصفـه منهجًـا مؤسسًـا - في التعاطـي مـع موضـوع الصحافـة والعلـوم الاجتماعيـة أساسًـا، وعليـه يتأسـس أي نقـاش بينهمـا.

> **لقد كان روبرت بارك الصحفي (Robert Park) ومؤسس مدرسة شيكاغو للسوسيولوجيا مؤمنًا بأن «الأخبار هي شكل أولي من أشكال المعرفة؛ فهي بمثابة إعلان عن الأحداث بدلًا من تفسيرها، كما أنها تُمثل معرفة (غير منهجية، حدسية، أقرب إلى الحس السليم) بدلًا من المعرفة المُعمقة بشيء ما (شكلية، تحليلية، منهجية، علمية)».**

إن اسـتحضار هـذا البعـد يعنـي الانتصار للنزعـة الاتصالية أو الاسـتمرارية ومنازعة المدرسـة الانفصاليـة، وهـو مدخـل لتقويـم علاقـة العلـوم الاجتماعيـة بالصحافـة، بكونهـا جـزءا لا يتجـزأ مـن صيـرورة العلـوم أو على الأقـل مختبـرًا حيويًـا لتجريـب مجمـوع النظريـات والأدوات التـي تميـز العلـوم الاجتماعية.

لقـد كان روبـرت بـارك (Robert Park) الصحفـي (6) ومؤسـس مدرسـة شـيكاغو للسوسـيولوجيا مؤمنًـا بـأن «الأخبـار هـي شـكل أولـي مـن أشـكال المعرفـة؛ فهـي بمثابـة إعلان عـن الأحـداث بـدلاً مـن تفسـيرها، كمـا أنها [الأخبـار] تُمثـل معرفـة (غيـر منهجيـة، حدسـية، أقـرب إلـى الحـس السـليم) بـدلاً مـن المعرفـة المُعمقـة بشـيء مـا (شـكلية، تحليليـة، منهجيـة، علميـة)». (7)

من هـذا الاقتبـاس، تأتـي دعـوة إعادة التصـور الـذي بنـي عـن الصحافـة وإعـادة النظـر فيـه، قياسًـا إلـى «التعقيـد». هكـذا ينفتـحُ منعطـف آخـر في طبيعـة هـذه العلاقـة، ويعيـدُ أيضا تعريـف الصحفـي اليـوم، ليـسَ بوصفـه نـاقلا للمعلومـة وفقط، بـل فـاعلاً فيهـا، خصوصا في ظـل «سـيولة» المعلومـة وتدفقهـا؛ إذ أصبـحَ بمكنـة الجميـع تلقـي المعلومة وحملهـا، بيـدَ أن الصحـافي هـو مـن يسـتطيع وضعهـا في سـياقها وقراءتـها وتحليلهـا، وهـي كلهـا ممارسـات مـن صميـم المعرفـة. لكنهـا معرفـة مُحـددة بالإطـار المهنـي الـذي يشـتغلُ فيـهِ الصحفـي.

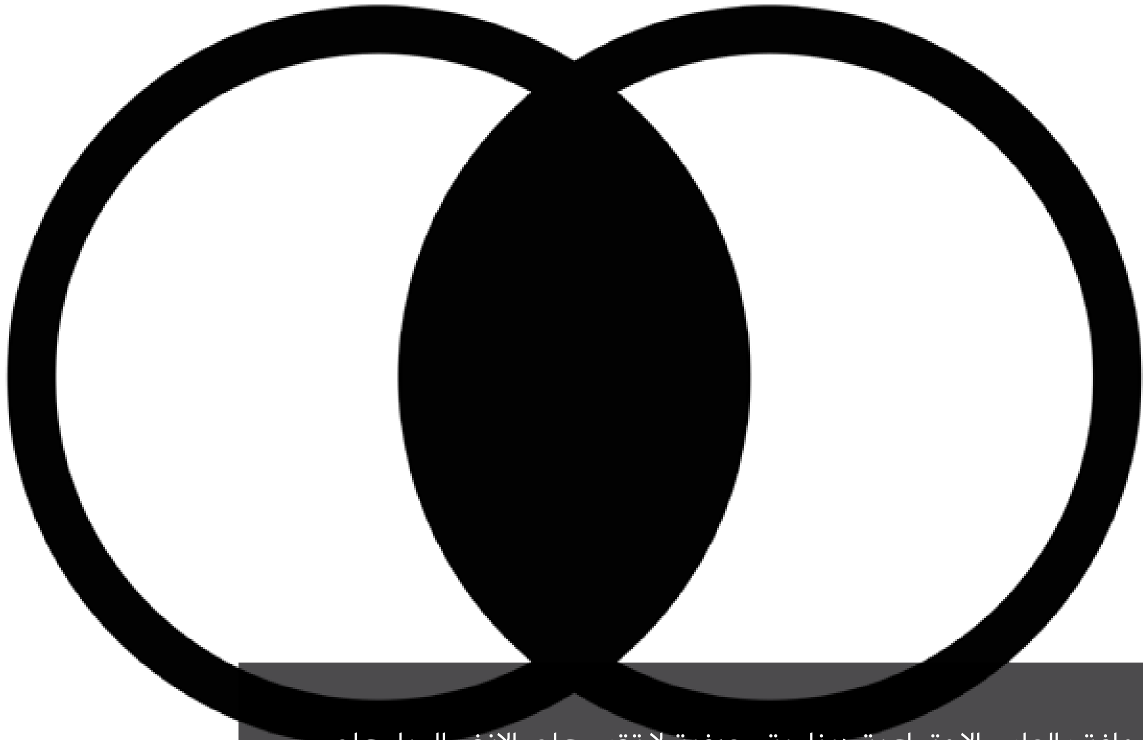
الأدوات: اشتراك في «الفعل» لا في «الصفة»:

يتطابـق البحـث بيـنَ الصحفـي والباحـث في العلـوم الاجتماعيـة مـن جهـةِ فهـم الواقـع ومحاولـة تفسـيره، هـذا هـو جوهـر عَمـل الباحـث الـذي يتقصدُ «الفعـل الاجتماعـي» بوصفـه «تصـورًا وتمـثلا» أي ظاهـرة ينبغـي تحليلهـا وتفسـيرها وتأويلهـا، أمّـا الصحفـي فيوجـدُ أحيانـا في قلـبِ الفعـل والحـدث الـذي يُترجَـم إلـى: الإخبـار أو التبليـغ. هكـذا يتمايـزان في مقاربـة الواقـع الاجتماعـي وفي النتائـج أيضًـا: العلـوم الاجتماعيـة تنتـجُ معرفـة تراكميـة، بينمـا تتوقـف نتائـج الصحافـة على التأثيـر، وهـذا بحـدِ ذاتـهِ ملمـحُ جوهـري ينبغـي التفكيـر فيـه وفي مسـألة العلـوم الاجتماعيـة خاصـة في السـياق العربـي؛ أي عـن مـدى تأثيرهـا في المجتمـع.

إنّ هـذا التمايـز أسـاس لفهـم جـذور التنـازع بيـن الصحافـة والعلـوم الاجتماعيـة، بيـدَ أنّ مـا هـو ثابـت بين الحقليـن هـو الاشـتراك في اسـتثمار أدوات البحـث الاجتماعـي، أي مـن حيـث الاسـتعمال والاسـتثمار، وهـو مـا يعنـي على مسـتوى التوصيـف أنهمـا يشـتركان في «الفعـل» لا في «الصفـة»؛ وهكـذا نجـد الإنتاجـات والمحتويـات الصحفية تسـتثمر الأدوات الاجتماعيـة في معالجـة العديـد مـن الظواهـر مثـل اسـتعمال المقـابلات والملاحظـة والسـرد الاجتماعـي والأنثربولوجـي في القصـة الصحفيـة الإنسـانية وتحليـل الوثائـق ... وغيرهـا مـن الأدوات التـي تسـعف الصحـافي في أداء عملـهِ بعمـق وبتأثيـر.

يتطابق البحث بينَ الصحفي والباحث في العلوم الاجتماعية من جهةِ فهم الواقع ومحاولة تفسيرِه، هذا هو جَوهر عمل الباحث الذي يتقصدُ «الفعل الاجتماعي» بوصفهِ «تصورًا وتمثلا» أي ظاهرة ينبغي تحليلها وتفسيرها وتأويلها، أمّا الصحفي فيوجدُ أحيانا في قلبِ الفعل والحدث الذي يُترجَم إلى: الإخبار أو التبليغ. هكذا يتمايزانِ في مقاربةِ الواقع الاجتماعي وفي النتائج أيضًا.

لا تُغيّـب مسـألةُ اسـتعمال الأدوات الاجتماعيـة سـواء في الصحافـة أو العلـوم الاجتماعيـة مـا يصطلـح عليـه بـ»سـلطة المنهـج»؛ فالضـرورة الإبسـتمولوجية والمنهجيـة تقتضـي مـنَ الباحـث التقيـد بـالأدوات المسـتعملة في البحث، وهـو ما يضعه في امتحـان صعـب حـدَّ التناقـض أمـامَ الظواهـر الاجتماعيـة التـي قـد تنفلـتُ مـن «سـلطة المنهـج»، إلّا أنّ الأداة في الاسـتعمال الصحفـي تخضـعُ لمحـددات مرنـة - نسـبيًا - ومـن جهة أخـرى تخضـع لإطـار وتحديـد مسـبق (الخـط التحريـري، الضغـوط السياسـية والإكراهـات الاقتصاديـة، الإكـراه الزمنـي) فالشـرطُ هنـا معيـاري وليـسَ قيمـي، إذ يظـل الأول مقرونًـا ورهينًـا بالصحافـة، بينمـا الثانـي هـو مُحـدد ملازم لماهيـة العلـوم الاجتماعيـة.



بين الصحافة والعلوم الاجتماعية دينامية معرفية لا تقوم على الانفصال بل على التقاطع (تصوير: شترستوك).

خاتمة:

إنّ عملية «الاقتباس» بين الصحافة والعلوم الاجتماعية ليست فعلاً ميكانيكيا للنقل بين الحقول، بل هي إعادة بناء وتأويل مستمر للمعرفة، حيث تتجاوز الحدود التقليدية بين العلوم؛ فالصحافة في سعيها إلى فهم الواقع وتفسيره تستفيد من أدوات البحث الاجتماعي، ولكنها تتعامل معها ضمن سياقات مرنة وقيمية تختلف عن تلك التي تهيمن على الممارسات العلمية الأكاديمية.

وبينما تسعى العلوم الاجتماعية إلى بناء معرفة تراكمية معمقة، تهدف الصحافة إلى التأثير الفوري وإيصال المعلومة للجمهور، مما يعكس التفاوت في النتائج بين الحقلين، إلا أنّ هذا التفاوت لا يمنع من التفاعل البيني المثمر. وبناءً عليه، يمكننا القول إنّ «الاقتباس» بين الحقلين يعكس حقيقة حيوية هي أن المعرفة تتطور وتتوسع عبر التفاعل المتبادل بين الحقول، وهو ما يسهم في إغناء كل منهما بشكل مستمر، ويعكس ضرورة التفكير النقدي في استثمار الأدوات المعرفية المشتركة وفي العلاقة بين الحقلين أيضاً.

المراجع

(1) يتناول الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل (Edmound Husserl)، في كتابه: أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية. الأزمة التي يمر بها الفكر الأوروبي المعاصر، من خلال تحليله لتراجع دور العلوم الطبيعية في فهم المعنى الحقيقي للوجود الإنساني، حيث عبر عن قلقه من أن العلوم الحديثة قد تبتعد عن أسئلة المعنى والحقيقة الوجودية، متأثرة بالمادية والتقليدية.

(2) Bastin, Gilles. “Le journalisme et les sciences sociales. Trouble ou problème?” Sur le journalisme 5, no. 2 (2016).

(3) Bastin, “Le journalisme et les sciences sociales,” 48.

(4) Bastin, “Le journalisme et les sciences sociales,” 53.

(5) Morin, Edgar. Introduction à la pensée complexe. Paris: Points Essais, 2014.

(6) روبرت بارك، من أشد المدافعين عن الإطار المؤسساتي للصحافة الاجتماعية، فالصحافة وفقا لمنظوره، تساعد في تحقيق التوازن بين الأفراد والمؤسسات، طبق نظرية النسقية في الصحافة، ويرى أن الإعلام جزء من النظام الاجتماعي الأكبر، ويعمل كوسيط يربط بين مختلف مكونات المجتمع. وقد بدأ حياته المهنية كصحفي ثم مدرسا للفلسفة وعلم الاجتماع، في جامعة هارفارد، لمزيد من التفاصيل حول نظريته، العودة إلى كتاب الصحفي والسوسيولوجي، الذي نشر بالفرنسية في عام 2008، وقدم له إيدوي بلينيل: https://www.sa-autrement.com/livre/le-journaliste-et-le-sociologue-robert-e-park-9782020970976/

(7) Weaver, David H., and Maxwell E. McCombs. “Journalism and Social Science: A New Relationship?” The Public Opinion Quarterly 44, no. 4 (1980): 485.

إجابات كبيرة في أماكن صغيرة أو نقد تاريخ السلطة!

عمّار الشقيري

هناك تاريخ السلطة، وهناك تاريخ المجتمع. بين هذا الحدين، بحث عمار الشقيري عن إجابات كبيرة في قرية صغيرة في الأردن هي «شطنا»، متقصيا عن الأسباب السوسيولوجية لهجرة سكانها إلى المدن الكبرى. بعد فحص المصادر التاريخية وإجراء المقابلات، سرد قرنا كاملا من تاريخ القرية بمنظور «التاريخ المصغر».

دخلتُ مع زميلي المصوّر - صُدفةً - قرية "شطنا" التي تقع شمال الأردن، وبدا الأمر غريبًا للوهلة الأولى؛ فقد خلت القرية من السيّارات والمارّة، ولم يكن فيها دكاكين مع انتشار الكثير من البيوت - خاصة القديمة منها - وأربع كنائس، ومركز صحيّ، ومدرسة ابتدائيّة، وكان واضحا أن القرية موجودة منذ قرن، لكن أين ذهب الناس؟ كان هذا سؤال القصة الصحفيّة التي سنعمل عليها لاحقًا.

عدنا إلى المكتب وعثرنا في الأرشيف على الأخبار التي تمتدح هدوء القرية المعزولة في الريف، وتستعرض جمال البيوت المبنيّة على طراز بناء بدايات القرن العشرين، وخبرا وحيدا عن هجرة سكان القرية إلى المدن.

عدنا مرة أخرى إلى شطنا، يقودنا دليل من سكّانها يعمل فني تمديدات صحية، من أجل البحث عن إجابة للسؤال التالي: لماذا هاجر أهل القرية؟

أجاب أحد المخاتير - وكان أبناؤه قد هاجروا قبل سنوات - على أسئلة الصحافة التقليدية التي طرحناها عليه، لكنّ السياق الأوسع للإجابة ظل لغزًا؛ إذ بدا أن الإجابات كانت محكومة بظرف شخصيّ، ولا تقدم تصورًا أوسع لأسباب الهجرة. بالإضافة إلى ذلك، كانت تلوح كفرضيّة للبحث فكرةُ تزايد هجرة المسيحيين من بلاد الشام، ثم تناسلت أسئلة أخرى: متى ولماذا جاء الناس للسكن في القرية بالأصل، وما الذي طرأ حتى هجروها؟

لم نجد أي إجابة ناجزة في كتب التاريخ، وكل ما كان بين أيدينا هو تخمينات بعض السكّان أن أسلافهم قدموا للسكن في القرية أواخر حكم الدولة العثمانية للمنطقة؛ أي أن فرصة الوصول إلى شاهد يروي قصّة بداية الاستيطان في القرية كانت معدومة.

> **أجاب أحد المخاتير، وكان أبناؤه قد هاجروا قبل سنوات، على أسئلة الصحافة التقليدية التي طرحناها عليه، لكنّ السياق الأوسع للإجابة ظل لغزًا؛ إذ بدا أن الإجابات كانت محكومة بظرف شخصيّ، ولا تقدم تصورًا أوسع لأسباب الهجرة.**

هكذا سيصبح السؤال التالي مهما: ما طبيعة العلوم الاجتماعية التي يمكن أن تكون مفيدة في العمل على هذه القصة؟

كان تاريخ بلاد الشام في الفترة العثمانية قد كُتب بمجمله من وجهة نظر السلطة أو المركز أو طبقة الأعيان، وأقصي تبعًا لذلك تاريخ أماكن كثيرة بعيدة عن ولايات الدولة الرئيسية، وتاريخ أناس كثيرين ليسوا من طبقة الأعيان، وكانت منطقة جنوب سوريّة العثمانية، التي تضمّ الآن الأردن ومنها قرية «شطنا»، واحدة من المناطق التي لم يؤرخ لها بشكل واف. لكن، ومنذ التسعينيّات ظهر في الأردن جيل مؤرخين أردنيين وثقوا تاريخ الحياة الاجتماعيّة في فترة نهايات الحكم العثماني للمنطقة وبدايات تأسيس الدولة، متناولين مناطق صغيرة مثل: تاريخ مدينة، أو مجموعة قرى، أو ناحية، ومعتمدين على مقابلات شفهية مع كبار السن، وقوائم جباية الضرائب للدولة العثمانية، ودفاتر ديون التجّار، وسجلات الكنائس والمحاكم الشرعية. (1)

كانت هذه المصادر الأقل أهمية في كتابة التاريخ من قبل المؤرخين في العالم، لكن منذ العقد السابع من القرن الماضي توسع الاعتماد عليها في بعض فروع التاريخ مثل: "التاريخ المصغّر" أو "التاريخ من الأسفل" وهي حقول تهتم بكتابة تاريخ الناس لا السلطة، وتاريخ مجموعة صغيرة من الناس في منطقة صغيرة، وتاريخ الهوامش لا مراكز الحكم، وتعتمد على «البحث عن إجابات الأسئلة الكبيرة في أماكن صغيرة»، و«حمل المجهر بدل التلسكوب» وعلى عدم اعتبار الأفراد مجرد دمى مهما قلّت أهمية أدوارهم داخل المجتمع؛ إذ يمكن أن تخرج الإجابات الكبيرة من الأدوار الصغيرة. (2)

هكذا لعبت واحدة من دراسات المؤرخين الأردنيين هؤلاء دورًا حاسمًا في تقديم معلومات حول وقت وسبب استيطان الناس قرية "شطنا"، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ حيث جاؤوا بحثًا عن المراعي لمواشيهم التي شكلت واحدة من ركائز نمط إنتاج أهالي المنطقة في تلك الفترة. وقدّم بحثُ غير منشور وموجود في قسم الأنثروبولوجيا في جامعة اليرموك شمال البلاد - حيث تقع القرية - شرحًا مفصلًا حول التركيبة الاقتصادية لسكان القرية، وتوثيقًا لبدايات هجرة سكّانها منذ منتصف القرن الماضي.

أنجز البحث طالب ماجستير قبل أكثر من ثلاثين سنة، وأقام في القرية أيّامًا من أجل إحصاء عدد السكّان، والمهاجرين منهم، وتوثيق

السكّان، والمهاجرين منهم، وتوثيق أماكن سكن المهاجرين في المدن والعاصمة.

> نقبت في تعليقات ناصر الدين الأسد التي دوّنها على هوامش كتب قرأها قبل نصف قرن، وقلّبت لساعات طويلة في دفتر يوميات أبو الموسيقى الشعبية الأردنية توفيق النمري، وساهمت المعلومات المدونة في دفتر تخرّج مدرسة ثانوية في قرية نائية في الغور الأردني في الوصول إلى عناوين الخريجات في سنوات سابقة، ثم الكشف عن سبب حصولهن على المراتب الأولى في امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة.

"فئات أخرى" و "آخرون"

بعد الكثير من المقابلات، وفحص المعلومات الواردة في كتب التاريخ والدراسة غير المنشورة توصلنا إلى سرد قصّة أكثر من قرن من عمر القرية، منذ بداية الاستيطان ثم هجرتهم إلى العاصمة والمدن الكبيرة ليكونوا قريبين من أماكن أعمالهم الجديدة في الوظائف الحكوميّة والجيش والقطاع الخاص، بعدما تركوا مهنة الأسلاف في الزراعة وتربية المواشي. إنه تحول يمثل جزءا من تغير نمط الإنتاج في المجتمع الريفي الأردني من الإنتاج الزراعي إلى الإنتاج الخدمي الذي بدأ مع تأسيس الكثير من مؤسسات الدولة الحكوميّة، والكثير من شركات القطاع الخاص ومصانعه.

لا يتعلق الأمر فقط بتقديم معلومات أولية للقصة الصحفية، بل استخدام أحد أدوات البحث التاريخي للمساعدة في بناء الكثير من القصص والبروفايلات الصحفيّة، وبدت إمكانيّة حمل مجهر يظهر التفاصيل الصغيرة بشكل أكبر من أجل التمحيص والبحث في حيز أضيق من مجتمع قرية، ممكنة. نقبت في تعليقات ناصر الدين الأسد التي دوّنها على هوامش كتب قرأها قبل نصف قرن، وقلّبت لساعات طويلة في دفتر يوميات أبو الموسيقى الشعبية الأردنية توفيق النمري، وساهمت المعلومات المدونة في دفتر تخرّج مدرسة ثانوية في قرية نائية في الغور الأردني في الوصول إلى عناوين الخريجات في سنوات سابقة، ثم الكشف عن سبب حصولهن على المراتب الأولى في امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة على مستوى المملكة متجاوزات نتائج طالبات مدارس عريقة وحديثة في المدن والعاصمة لسنوات. أما الأهم فقد حدث السنة الماضية في قرية «عنجرة» الموجودة في محافظة عجلون.

قبل سنتين، بدأ الآلاف من الشباب الأردنيين يهجرون قراهم في رحلة طويلة تشمل عبور ثلاث قارات وسبع دول، وكانت الرحلة محفوفة بالمخاطر، تتطلب منهم السفر برًا وهم محاطون بأفراد العصابات المسلحين، ربما الأشد فتكًا في أمريكا الوسطى، أما الوجهة النهائية فهي المكسيك، ثم الدخول بطريقة غير نظامية إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة. كانت محافظة عجلون التي تقع



لقد نشأ «التاريخ المصغّر» بصفتِه واحدا من العلوم الاجتماعية معتمدا في الكثير من الأحيان على الأنثروبولوجيا والاقتصاد، ومرتبطا بمرحلة تراجع الاستعمار، وظهورِ أصوات المجتمعات التي لم تحظ بتمثيل جيّد في العالم مثل: السود والنساء والأقليات العرقيّة وسكّان الهوامش، وقد ظهر مُحاوَلةً من هذه الفئات لاكتشاف ماضيها وإعادة بنائه (تصوير رشا المغربي - شترستوك).

فيهـا "عنجـرة" وسـط الـبلاد تشـهد أعلى نسـبة مـن المهاجريـن، ولـم يكن الحصـول على مقـابلات منهـم خلال رحلتهـم، أو ممـن وصلـوا إلـى الولايـات المتحـدة سـهلًا، لكـن الحاجـة إلـى اختيـار القصـص المناسـبة لوضعهـا في التقريـر حتمـت علينـا ذلـك.

> بعد الكثير من المقابلات، وفحص المعلومات الواردة في كتب التاريخ والدراسة غير المنشورة توصلنا إلى سرد قصّة أكثر من قرن من عمر القرية، منذ بداية الاستيطان ثم هجرتهم إلى العاصمة والمدن الكبيرة ليكونوا قريبين من أماكن أعمالهم الجديدة في الوظائف الحكوميّة والجيش والقطاع الخاص، بعدما تركوا مهنة الأسلاف في الزراعة وتربية المواشي.

يسـاعد الجـو العـام أمـام هـذه المعطيـات على القـول - وهـذا مـا حـدث في الأخبـار بالفعـل - إن البطالـة المرتفعـة في الأردن تدفـع الشـباب للهجـرة إلـى الولايـات المتحـدة بحثـًا عـن العمـل؛ إذ ارتفعـت أرقـام البطالـة في السـنوات الأخيـرة، وثمـة الكثيـر مـن الدراسـات الاقتصاديـة والاجتماعيـة التـي تبحـث في موضـوع البطالـة، تركّـز كثيـرًا على أرقـام المتعطليـن عـن العمـل ونسـبتهم وعـدم وجـود مشـاريع لتشـغيلهم، مـع رسـومات بيانيـة تعتمـد على مسـوح دائـرة الإحصـاءات العامـة توضـح توزيـع العاطليـن عـن العمـل مـن حيـث عمرهـم وتحصيلهم العلمـي وجنسـهم.

لكـن عجلـون لـم تكـن الأعلى مـن حيـث نسـب البطالـة مقارنـةً ببقيـة المحافظـات الأردنيّـة مـن أجـل القـول إن البطالـة هـي السـبب الوحيـد لهـذه الهجـرة. (3) أمـا الرقـم اللافـت - الـذي نوقـش بشـكل هامشـي في أحـد الدراسـات الاقتصاديـة في فقرتيـن فقـط - فيشـير بالاسـتعانة بالمسـوح الإحصائيّـة إلـى وجـود أعلى نسـبة عامليـن بأجور منخفضـة في المحافظة مقارنـةً بالمحافظـات الأخـرى. وعلى هـذا النحـو وإلـى جانـب قصـص معطليـن عـن العمـل، جـرى تضميـن قصـص عـن عامليـن تركـوا وظائفهـم في القطـاع الحكوميّ والخـاص؛ وذلك لتمثيـل دوافـع الهجـرة بشـكل أدق. كانـت أداة البحـث عـن الحـالات المختلفـة في المسوح هـي التقليد العريـق لـدى المشـتغلين في حقـل «التاريـخ المصغّـر»، وبعبارة أخـرى، يركز هـذا الحقـل مـن العلـوم الاجتماعيّـة على النسـب والأرقـام التـي تظهـر في الرسـوم البيانيـة المضمنـة في الدراسـات تحـت بنـد: «فئـات أخـرى». لقـد نشـأ «التاريـخ المصغّـر» بصفتـه واحـدًا مـن العلـوم الاجتماعيـة معتمـدًا في الكثيـر مـن الأحيـان على الأنثروبولوجيـا والاقتصـاد، ومرتبطـًا بمرحلـة تراجـع الاسـتعمار، وظهـور أصـوات المجتمعـات التـي لـم تحـظ بتمثيـل جيّـد في العالـم مثل: السـود والنسـاء والأقليـات العرقيّـة وسـكّان الهوامـش، وقـد ظهـر مُحاوَلـةً مـن هـذه الفئـات لاكتشـاف ماضيهـا وإعـادة بنائـه. (4) وهـذه أداة مهمّـة في العمـل الصحفـي مـن أجـل البحث في فئـة: "آخـرون" التـي تنتشـر كثيـرًا. إنهـم أولئـك الذيـن ذكّرنـا مـرّة بهـم الروائـي الفلسـطيني إميـل حبيبـي في روايتـه المتشائل: «قلتَ إنَّـك لـم تحـسّ بـي أبـدًا، ذلـك أنَّـكَ بليـد الحـسّ يـا محتـرم، فكـمّ مـن مـرّة التقيـت اسـمي في أمهـات الصحـف؟ ألـم تقـرأ عـن المئـات الذيـن حبسـتهم شـرطة حيفـا في سـاحة الحناطيـر (باريـس حاليًـا) يـوم انفجـار البطيخـة؟ كلّ عربـيّ سـاب في حيفـا السـفلى على الأثـر حبسـوه، مـن راجـل ومـن راكـب، وذكـرت الصُحـف أسـماء الوجهـاء الذيـن حُبسـوا سـهوًا وآخريـن, آخـرون - هـؤلاء أنـا - الصُحـف لا تسـهو عنـي، فكيـف تزعـم أنـك لـم تسـمع بـي؟ إنـي إنسـان فـذّ فلا تسـتطيع صحيفـة ذات اطّلاع وذات مصـادر وذات إعلانـات وذات ذوات وذات قـرون أن تهملنـي، إنَّ معشـري يملـؤون البيـدر والدسـكرة والمخمـرة. أنـا الآخـرون».

على الـدوام، مثلمـا قـد حـدث في الصحافـة حـدث في العلـوم الاجتماعيـة؛ هنـاك أكثـر مـن روايـة ومعالجـة للحـدث، واحـدة تأخـذ زاويـة السُـلطة أو الأكثريـة أو المركـز، وأخـرى تبتعـد عـن كل ذلـك وتُحـاول معالجـة الحـدث مـن زاويـة أخـرى، زاويـة مـن يعيشـون في الهامـش، أو مـن يعيشـون في المركـز ويصنفـون بأنهـم هامـش، تحـت "فئـات أخـرى". لهـذا سـيكون السـؤال التالـي دائمًـا ضروريًـا: أيّ العلـوم الاجتماعيّـة يصلـح لتوظيفـه في الصحافـة؟



المراجع

(1) مثل كتاب جورج طريف، «السلط وجوارها 1846-1921»، وكتاب هند أبو الشعر «إربد وجوارها: ناحية بني عبيد، 1850-1928» وكتاب عليّان الجالودي،«قضاء عجلون 1864- 1918» وكتاب نوفان السواريه «عمّان وجوارها 1864-1921».

(2) Magnússon, Sigurður Gylfi, and István M. Szijártó. What Is Microhistory? Theory and Practice. London: Routledge, 2013.

(3) وفقًا لدائرة الإحصاءات العامة لسنة 2023: كانت عجلون تحتل المركز السابع في نسبة المتعطلين عن العمل إلى نسبة القادرين على العمل من بين 12 محافظة أردنية.

(4) Reflections on the historiography of the twentieth century from the perspective of the twenty-first century/Iggers Georg/University of Buffalo/2017.



تقاطعات الصحافة والعلوم الاجتماعية في الميدان

محمد أحداد

يمثل الميدان ذروة التقاطع بين الصحافة والعلوم الاجتماعية والإنسانية، ومع تعقد الظواهر، يرتدي الصحفي في الكثير من الأحيان عباءة السوسيولوجي دون أن يتخلى عن جوهر المهنة في المساءلة والبحث عن الحقائق المضادة لكل أشكال السلطة. إن هذا «اللجوء»، يحسن جودة التغطية ويقدم سياقات أساسية، وقد يفضي إلى تغيير جذري في زوايا المعالجة.

قضى الكاتب موريس برينتون أكثر من أسبوعين في فرنسا شاهدَ عيان على الثورة الطلابية سنة 1968، ونقل بنفَس مناضل وبأدوات عالم اجتماع - مع أنّه حدد في مقدمة الشهادة أفق الكتابة في الإخبار لا التحليل - يوميات الاحتجاجات موظفا التقاطعات بين الشهادة الحية والخلفية المعرفية لشرح ما جرى بالتحديد، وكيف انتقلت الثورة من مدرجات الجامعة إلى الساحات العامة، مع الملاحظة العميقة للكتابات على الجدران والهويات السياسية والأيديولوجية للمشاركين، والتأريخ اليومي للأحداث (1).

يكتب برينتون: «ليس من قبيل الصدفة أن تبدأ «الثورة» في كليتي علم الاجتماع وعلم النفس بجامعة نانتير؛ أدرك الطلاب أن علم الاجتماع الذي يُدرَّسونه كان وسيلة للسيطرة على المجتمع والتلاعب به، وليس وسيلة لفهمه بهدف تغييره. وفي خضم ذلك، اكتشفوا علم اجتماع ثوريا. رفضوا المكانة المخصصة لهم في الهرم البيروقراطي الكبير؛ مكانة «الخبراء» في خدمة المؤسسة التكنوقراطية، المتخصصين في «العامل البشري» في المعادلة الصناعية الحديثة. وأثناء ذلك، اكتشفوا أهمية الطبقة العاملة».

في 2 مايو/ أيار 1968، انتقلت شعلة الثورة الطلابية من الضواحي إلى قلب العاصمة باريس مخترقة أسوار جامعة السوربون العريقة، لكن النخبة السياسية وفي مقدمتها رئيس الوزراء - آنذاك - جورج بومبيدو الذي آثر أن يزور أفغانستان، لم يكونوا يدركون أن حراك الطلبة سيؤدي إلى ولادة لحظة سياسية جديدة انتهت باستقالة الرئيس الفرنسي شارل دوغول رغم شرعيته الانتخابية والتاريخية بصفته رمزا للتحرر ضد النازية في الحرب العالمية الثانية.

وإذا كانت «ثورة مايو» قد ألهمت حركات احتجاجية مدفوعة بالمد اليساري في أوروبا والعالم، فإنها أحيت ممارسة صحفية جديدة متأثرة بانخراط علماء اجتماع في نقد النظام الرمزي لـ «التقاليد المرعية» المتولد عن تطور الرأسمالية في وسائل الإعلام.

يومها، وجدت النخب الأكاديمية ومعها الصحفيون أنفسهم أمام واقع معقد لا يمكن تفسيره بالأدوات التقليدية (2) أو بالمقالات السريعة القائمة على الرأي النخبوي المتعالي عن تعقيدات المجتمع، لاسيما وأن الحراك الطلابي تطور بسرعة واتخذ منحى «ثوريا» لا يخلو من لحظات عنف شديدة لدرجة أن عالم اجتماع مرموقا مثل رايمون آرون كتب (3) في مقالة أصبحت مرجعية Après la tempête (بعد العاصفة): « لم يتوقع أحد قبل شهر قط ما حدث؛ لا رئيس الجمهورية ولا الحكومة ولا نواب البرلمان ولا الحزب الشيوعي ولا النقابات ولا كاتب هذه السطور نفسه».

في الفترة التي سبقت الثورة الطلابية، كانت الممارسة الصحفية السائدة في فرنسا مشغولة بمعركة الرأي في صفحات الصحف السياسية والثقافية، بينما كان الغضب ينمو في الهوامش وداخل الفضاءات الطلابية دون قدرة وسائل الإعلام على رصد مؤشرات غضب شعبي ضد «السلطة الأبوية» وذلك الشكل من السلطة الذي برز بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

بمعنى آخر؛ إن سيادة الرأي و«طغيان الاتصال» كما وصفه مدير «لوموند ديبلوماتيك» السابق إغناسيو رامونيه في كتابه أغفل حضور الميدان في الصحافة؛ ففي البحث الميداني يكون الصحفي ملتصقا أكثر بالواقع وأقدر على إنتاج معرفة تحترم شروط «الحقيقة الموضوعية». وفي مقابل القصاصات السريعة التي توصف بالمكتبية، فإن الصحفي في الميدان يجمع ويحلل ويفسر ويوضح ويشكك في الأحكام الجاهزة ويعيد تأويلها ضمن سياقاتها، ويلبس في الكثير من الأحيان عباءة عالم الاجتماع لشرح الظواهر المعقدة مثل الهجرة والحراكات الاحتجاجية والتدين في المجتمع وطبيعة العلاقات الاجتماعية وعلاقات القوة فيه.

إذا كانت «ثورة مايو 1968» بفرنسا قد ألهمت حركات احتجاجية مدفوعة بالمد اليساري في أوروبا والعالم، فإنها أحيت ممارسة صحفية جديدة متأثرة بانخراط علماء اجتماع في نقد النظام الرمزي لـ «التقاليد المرعية» المتولد عن تطور الرأسمالية في وسائل الإعلام.

الميدان والحقيقة الموضوعية

بعد ظهور الإنترنت، وخصوصًا مع الانتشار الواسع لمنصات التواصل الاجتماعي، تضخمت الأدبيات حول هذه التطورات التكنولوجية الطارئة على العمل الصحفي؛ من تراجع في المعايير المهنية وتجريد الممارسة الصحفية من قيمتها في العمق

والمسـاءلة، دون أن تنعكـس المقاربات النقديـة على عمـل الصحفييـن أو تطويـر وسـائل الإعلام لأسـاليب إنتـاج المعرفـة الصحفيـة.

يتضمـن «صـك الاتهـام» الموجـه إلـى الصحافـة في عصـر الإنترنـت سـعيَها نحـو السـرعة والتحـول إلـى «سـلعة» رأسـمالية قائمـة على منطـق السـوق، والاتجـاه نحـو الترفيـه والارتهـان للأجنـدات الاقتصاديـة للشـركات الكبـرى وخضـوع قـادة غـرف الأخبـار للنخـب السياسـية. لكـن الكاتـب الفرنسـي سـيرج حليمـي مؤلـف كتـاب «الحـراس الجـدد» يجـادل بـأن الإنترنـت لـم يكـن هـو مـن دمّـر الصحافـة، بـل إنهـا كانـت « تتعثـر منـذ فتـرة تحـت وطـأة إعـادة الهيكلة، والمحتـوى المدفـوع بالتسـويق، وازدراء قـراء الطبقـة العاملـة، وتحـت تأثيـر المليارديـرات والمعلنيـن. لـم يكـن الإنترنـت هـو مـن روّج لأكاذيـب الحلفاء خلال حـرب الخليـج الأولـى (1991) أو أكاذيـب الناتـو خلال صـراع كوسـوفو أو أكاذيـب البنتاغـون خلال حـرب العـراق. ولا يمكننـا لـوم الإنترنـت على عجـز وسـائل الإعلام عـن نشـر انهيـار بنـوك الادخـار في الولايـات المتحـدة عـام 1989 وانهيـار الـدول الناشـئة بعـد ثمانـي سـنوات» (4).

> **هل للصحافة موقف في النقد الاجتماعي والسياسي والثقافي؟ هل ماهيتها وصفية إخبارية معيارية لا تحيد عن تقاليدها في الإخبار أم إنّ ما يعني الصحفي مثلما يكتب عبد اللّه العروي في «من ديوان السياسة» - هو الجواب لا المرجعيات، الخلاصة لا المقدمات. وبدون مقدمات هل يفهم الجواب؟**

ضمـن هـذا النقـاش حـول سـلطة الصحافـة الـذي تغـذى بنتائـج الحـرب العالميـة الثانيـة وتطـوّر علـوم الاتصـال بشـكل خـاص في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، ظهـرت تجـارب رائـدة في أمريـكا وأوروبـا وأمريـكا اللاتينيـة تتجـاوز الوظيفـة التقليديـة في الإخبـار إلـى تفسـير الأحـداث وفهـم المجتمـع وتحسـين جـودة التغطيـة الإعلاميـة ودقتهـا وتوفيـر السـياقات الضرورية لتأطيـر الأحـداث. مـع ذلـك، ظـل التوجـس سـائدا في العلاقـة بيـن الصحافـة كمجـال يسـعى إلـى بنـاء الحقائـق بوضـوح وتركيـز واختـزال بالاعتمـاد على السـرد، والعلـوم الاجتماعيـة والإنسـانية كحقـل يميـل عـادة إلـى التجريـد والتحليـل النظـري واحتـرام «المسـافة السوسـيولوجية».

وبالمعنـى الـذي ألمحنـا إليـه سـابقا، فـإن مصـدر «سـوء الفهـم» الأساسـي يتأسـس على الأسـئلة التاليـة: هـل

في البحث الميداني يكون الصحفي ملتصقا أكثر بالواقع وأقدر على إنتاج معرفة تحترم شروط «الحقيقة الموضوعية» (تصوير: كارلوس غارسيا راولينز - رويترز).

للصحافة موقف في النقد الاجتماعي والسياسي والثقافي؟ هل ماهيتها وصفية إخبارية معيارية لا تحيد عن تقاليدها في الإخبار أم إنّ ما يعني الصحفي مثلما يكتب عبد الله العروي في «من ديوان السياسة» - هو الجواب لا المرجعيات، الخلاصة لا المقدمات. وبدون مقدمات هل يفهم الجواب؟ (5)

في سنة 2014، كنت بصدد إنجاز تحقيق في منطقة كلميمة جنوب المغرب حول موضوع تعذيب سكان المدينة سنة 1981 بسبب اتهام السلطة لهم بعصيان أوامر الملك الراحل الحسن الثاني بإلغاء شعيرة ذبح الأضحية والتمرد على السلطة المركزية بعدما «نُحتت» عبارات على أبواب المدينة تستهجن القرار.

بدا الأمر في الوهلة الأولى، وبعد جمع الشهادات، أن القضية - من الناحية الصحفية - واضحة وبسيطة: سكان يحتجون على القرار والسلطة «تؤدبهم». لكن مراجعة دقيقة لتاريخ علاقة المنطقة بالسلطة المركزية تنسف هذا الاختزال، وتقدم سياقا تاريخيا جديدا يقلب زاوية المعالجة.

بدا الأمر في الوهلة الأولى، وبعد جمع الشهادات، أن القضية - من الناحية الصحفية - واضحة وبسيطة: سكان يحتجون على القرار والسلطة «تؤدبهم». لكن مراجعة دقيقة لتاريخ علاقة المنطقة بالسلطة المركزية تنسف هذا الاختزال، وتقدم سياقا تاريخيا جديدا يقلب زاوية المعالجة.

تبعد مدينة كلميمة عن العاصمة الرباط - حيث كنت أشتغل - ثماني ساعات تقريبا، ولعله من المثالي إنجاز قصة دون الحاجة إلى النزول إلى الميدان وتحمل مشقة نصف يوم في الطريق وتكاليف إضافية على المؤسسة، والحال أني كنت قد حصلت على الشهادات والمصادر وبعض تصريحات سكان المدينة ممن عايشوا الأحداث إضافة إلى تقارير هيئة الإنصاف والمصالحة التي عالجت موضوع الذاكرة الجماعية.

لقد ساعدت ملاحظة بسيطة أدلى بها أحد ضحايا التعذيب سنة 1981، تتعلق بمقاطعة سابقة لاستفتاء تمديد الولاية البرلمانية لتصبح 6 سنوات بدل 4 -اقترحته الدولة وعبأت كل الوسائل لإقراره - على تغيير زاوية المعالجة من «كشف معاناة الضحايا» إلى التنقيب عن الجذور التاريخية التي تسعف في فهم دوافع تعذيب السلطة لمواطنين بطرق قاسية جدا.

هل يمكن للصحافة بطبيعتها الاختزالية والسريعة والمحكومة بهاجس اقتصادي أن تتحمل هذا النمط الجديد من المقاربة التاريخية التي لا تتسامح مع أنصاف الحقائق، وهو نمط مرتبط بالتركيز على معاناة الضحايا لا المتسببين بها؟

بالنسبة لي كان إبراز هذه الخلفية التاريخية المتمثلة في سيطرة مزاج مضاد للسلطة في المدينة ضروريا لأربعة أسباب رئيسية:

- إن التحولات المعاصرة في عالم الصحافة تعطي مكانة متزايدة للعلوم الاجتماعية والإنسانية لتأطير القصص في سياقاتها غير المجتزأة وتبني معرفة جديدة تتجاوز ما هو معروف وعام حول الموضوع.

- الهدف الرئيس هو تجاوز النظرة التقليدية التي تنظر إلى العلوم الاجتماعية باعتبارها معرفة أكاديمية معقدة ومجردة ونخبوية، وفي مقابل هذه الرؤية من المهم أن نبين للجمهور إلى أي مدى يمكن أن تفيد هذه المعارف في تجويد القصص الاستقصائية على وجه التحديد.

- يكتسب الميدان في الصحافة قيمة جوهرية تنتمي إلى صميم المهنة وتقاطعها مع العلوم الاجتماعية والإنسانية في البحث عن الحقيقة الموضوعية؛ لأنه يساعد على معالجة الأحكام المسبقة وربما العثور على حقائق بديلة وجديدة قد تتناقض كليا مع تحيزات الصحفي، أو تؤسس لمعرفة جديدة.

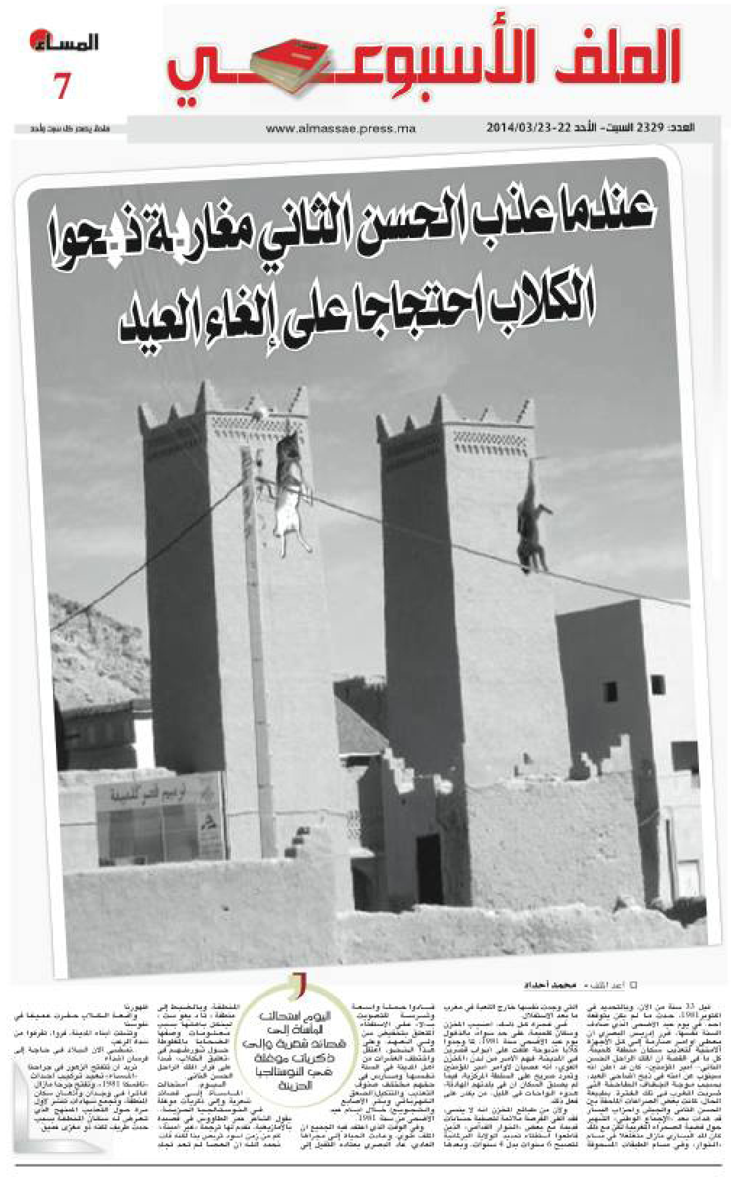
- العلاقة بين الصحافة والعلوم الاجتماعية أو الإنسانية لا يجب أن تؤطَّر في ثنائية الانفصال أو الاتصال أو بصفتهما مجالين (وليس حقلين لأن الصحافة تصنف ضمن العلوم الاجتماعية)، إنما النظر إلى الصحافة كمهنة متطورة تقاوم الرؤية الرأسمالية للمعلومات وتسليع الأخبار والقيم المعرفية التي تنتجها، وهي بحاجة إلى أدوات العلوم الاجتماعية لتفسير ظواهر سمتها التعقيد والتشابك.

وهكذا كنت حريصا على الإشارة بوضوح في مقدمة التحقيق إلى هذه الخلفية التاريخية ولو بشكل مقتضب: «ولأن من طبائع المخزن أنه لا ينسى، فقد ألفى الفرصة ملائمة لتصفية حسابات قديمة مع بعض «الثوار القدامى» الذين قاطعوا استفتاء تمديد الولاية البرلمانية لتصبح 6 سنوات بدل

4 سنوات، وبعدها قادوا حملة واسعة وشرسة للتصويت بـ «لا» على الاستفتاء المتعلق بتخفيض سن رشد ولي العهد. وعلى هذا النحو، اعتقل واختطف العشرات من أهل المدينة في السنة نفسها ومورست في حقهم مختلف صنوف التعذيب والتنكيل (الصعق الكهربائي وبتر الأصابع والتجويع) خلال أيام عيد الأضحى من سنة 1981» (6).

مثل هذا التأطير التاريخي للأحداث لا يساعد فقط في تنوير الجمهور بحقيقة ما جرى وربط شهادات الضحايا بالأحداث التاريخية، بل يحاكم الجناة ويشرح الطبيعة الانتقامية للسلطة في تلك الأيام الصعبة من العلاقة المتوترة بين الدولة والمجتمع.

> **لا يمكن اعتبار مجرد لجوء الصحفيين إلى الاقتباس من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية شرطا لتحقيق الدقة والجودة، بل إنها قد تفضي إلى التضليل ومساندة سرديات منحازة والدفاع عن روايات قادمة من السلطة. وقد أظهرت تغطية حرب الإبادة الجماعية في فلسطين كيف يسهم التلاعب بالمعلومات التاريخية في تكريس رواية الاحتلال وإحقاق «الوعد اليهودي» وأن فلسطين كانت أرضا خالية..**



المساء
7
الملف الأسبوعي
العدد: 2329 السبت- الأحد 22-2014/03/23
www.almassae.press.ma

عندما عذب الحسن الثاني مغاربة ذبحوا الكلاب احتجاجا على إلغاء العيد

أعد الملف: محمد أحداد

غلاف التحقيق الذي أنجزه كاتب المقال (جريدة المساء المغربية).

قد لا يؤدي العمل الصحفي الميداني الملقح بالعلوم الاجتماعية دائما إلى بناء الحقائق الموضوعية وتحسين زوايا المعالجة إذا كانت المقاربات الاجتماعية أو الإنسانية سطحية أو مبتورة أو خاضعة للتأويل الأيديولوجي وانحيازات الصحفي أو لضغوط المجتمع أو قمع السلطة كما هو الحال في العالم العربي. لذلك لا

يمكن اعتبار مجرد لجوء الصحفيين إلى الاقتباس من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية شرطا لتحقيق الدقة والجودة، بل إنها قد تفضي إلى التضليل ومساندة سرديات منحازة والدفاع عن روايات قادمة من السلطة. وقد أظهرت تغطية حرب الإبادة الجماعية في فلسطين كيف يسهم التلاعب بالمعلومات التاريخية في تكريس رواية الاحتلال وإحقاق «الوعد اليهودي» وأن فلسطين كانت أرضا خالية..

إن سعي الصحافة للاقتراض من أدوات العلوم الاجتماعية والإنسانية لا ينبغي أن يفهم بوصفه توجّها معرفيا أو تقنيًا، بل يجب أن يقرأ في سياق التوتر الدائم بين ممارسة وظائف الصحافة الأساسية في مراقبة السلطة ومساءلتها ونقدها، وبين التحديات السياسية والاجتماعية التي تَحدّ ذلك. فالاقتراب من هذه الأدوات يجب أن يكون في جوهره نابعًا من الانحياز إلى المعرفة النقدية المضادة القادرة على زعزعة روايات السلطة السائدة بكل أشكالها، وتحقّق «الأثر» المرجو بمفهومه الصحفي.. ويمكن هنا استدعاء ملاحظة بيير بورديو حول «الحقل» أو «العادة»؛ حيث يميل الصحفيون إلى الحفاظ على الوضع القائم ومقاومة التغيير؛ بسبب التأثر بالبنى السائدة للمؤسسات الثقافية والضغوط السياسية والاقتصادية التي تتحكم بالإعلام.

ينبغي النظر إلى وظيفة العلوم الاجتماعية في تقاطعها بالصحافة من باب أنّ وظيفتها هي خدمة المجتمع وليس السيطرة عليه.

يساعد استخدام أدوات ومعارف العلوم الاجتماعية والإنسانية في بناء قصص صحفية دقيقة (تصوير: غيتي).

المراجع

(1) https://www.marxists.org/archive/brinton/1968/06/may-68.htm?utm_source=chatgpt.com

(2) دراسة لجون ماري شارون منشورة في مجلة Politix، العدد 36، Journalisme et sciences sociales. Proximités et malentendus

(3) «Le Figaro – «Après la tempête (4 juin 1968

(4) العروي، عبد الله. السنة والإصلاح. بيروت: المركز الثقافي العربي، 2008.

(5) https://mondediplo.com/2009/10/01press

(6) https://www.jadidinfo.com/article-1350.html

الصحافة ومناهج البحث الاجتماعية

أحمد نظيف

على عكس ما يشاع من تنافر نظري بين الصحافة والعلوم الاجتماعية، فإنهما يتداخلان على نحو معقد ومفيد لكليهما، خاصة بالنسبة للصحافة التي لا ينبغي أن تتعلق فقط بتغطية الحقائق، بل أن تنشغل أيضا بالتحقيق بشكل منهجي في الظواهر المجتمعية لإعلام الجمهور وتثقيفه. يجيب المقال عن سؤال محوري: كيف يمكن أن نُجسّر الهوة بين الصحافة والعلوم الاجتماعية؟

بيـن الصحافـة والعلـوم الانسـانية والاجتماعيـة حواجـز نظريـة، عمقهـا التنافـر بيـن الصحفييـن والباحثيـن، سـواء مـن جهـة فقـدان جسـور الثقـة أو مـن جهـة تعالـي العلـوم الاجتماعيـة وممثليهـا على الصحافـة بوصفهمـا تقـابلاً بيـن المعرفـة الرصينـة والمعرفـة السـريعة. لكن في الحقيقـة إن الهـوة أقـل عمـقاً مما نعتقـدّ، لاسـيما بالنسـبة للصحفييـن الذيـن يشـتغلون خـارج غرفـة الأخبـار على مضاميـن تحتـاج وقتـاً وتريثـاً في الصياغـة والبحـث. وكونـي أنتمـي للعالميـن، عالـم الصحافـة وعالـم العلـوم الاجتماعيـة، فـإن الجمـع بينهمـا مفيـد لكليهمـا في تجويـد العمـل والاسـتفادة مـن قبعتـي الصحفـي والباحـث أحيـاناً لتجريـد الوقائـع مـن هيمنـة الواقـع، وأحيـاناً أخـرى لمنـح المقـولات النظريـة لبوس الواقـع والنـزول بهـا إلـى الأرض؛ ففـي حيـن يركـز الباحثـون الأكاديميـون في كثيـر مـن الأحيـان على بنـاء النظريات والدراسـات طويلـة الأجـل، فـإن الصحفييـن يطبقـون هـذه الأسـاليب في الزمـن الراهـن لإنتـاج رؤى قابلـة للتنفيـذ.

لا يعنـي ذلـك غيـاب الحواجـز تمـاماً بيـن العالميـن، ولكـن بالممارسـة يكتشـف الصحفـي أنـه يمـارس عمـل الباحـث الاجتماعي أو التاريخي بشـكل واعٍ أو غيـر واعٍ، ولكنـه نسـبي وغيـر مكّتمـل تمـامًا، كونـه يريـد تقديـم خدمـة للجمهـور، خلافاً للباحـث الـذي يعمـل على تحقيـق الهـدف المعـرفي في ذاتـه - بغـض النظـر عـن الجمهور أو المتلقـي -، ولذلـك يعتبـر البعـض أن الصحافـة تنتمـي لفئـة العلـوم الاجتماعيـة التطبيقيـة، وهـو الزعـمّ الـذي دافـع عنـه إريـك دبليـو أليـن (1) منـذ عشـرينات القـرن الماضـي، وقـام بتجسـير الفجـوة بيـن الصحافـة مهنـةً والصحافـة علـماً. وقـد أرسـى عملـه الأسـاس لفهـم كيفيـة تقاطـع الممارسـات الصحفيـة مـع منهجيـات ومبـادئ العلـوم الاجتماعيـة مثـل علـم الاجتمـاع وعلـم النفـس والعلـوم السياسـية والأنثروبولوجيـا، مؤكـداً أن الصحافـة لا تتعلـق فقـط بتغطيـة الحقائـق، بـل تنشـغل أيـضاً بالتحقيـق بشـكل منهجـي في الظواهـر المجتمعيـة لإعلام الجمهـور وتثقيفـه وإشـراكه.

> كوني أنتمي للعالمين، عالم الصحافة وعالم العلوم الاجتماعية، فإن الجمع بينهما مفيد لكليهما في تجويد العمل والاستفادة من قبعتي الصحفي والباحث أحياناً لتجريد الوقائع من هيمنة الواقع، وأحياناً أخرى لمنح المقولات النظرية لبوس الواقع والنزول بها إلى الأرض.

تقاطع المناهج في الصحافة

ربمـا يكـون المنتـج الصحفـي أكثـر أصنـاف المعرفـة التـي تتقاطـع فيهـا مناهـج العلـوم الاجتماعيـة، سـواء في المنتـج النهائـي الـذي يظهـر للجمهور أو في كواليـس الإنتـاج، ويتجـاوز هـذا التقاطـع حواجـز تقسـيم الأجنـاس الصحفيـة المختلفـة، بدايـةً مـن الأقـل تعقيـداً كالخبـر، إلـى الأكثـر تعقيـداً كالتحقيقـات الاسـتقصائية والوثائقيـات. واللافـت أن توظيـف الصحافـة لمنظـورات وأسـاليب العلـوم الاجتماعيـة ليـس ظاهـرةً حديثـة، بـل بـدأ يتطـور منـذ ظهـور الصحافـة كمهنـة مسـتقلة (2)، لكـن ربمـا الوعـي بهـا أو اهتمـام أدبيـات الصحافـة البحثيـة بهـذا التوظيـف لـم يبـدأ إلا بشـكل متأخـر نسـبياً. واليـوم، ومـع تطـور وسـائلً غيـر صحفيـة في شـغل موقـع الصحافـة في نقـل الأخبـار؛ كالمنصـات الاجتماعيـة، أصبـح المنتـج الصحفـي المعـزز بمناهـج العلـوم الاجتماعيـة الامتيـاز الـذي يحقـق فـرادة الصحافـة في مواجهـة منافسـيها غيـر التقليدييـن؛ حيـث توفـر أسـاليب البحـث الاجتماعـي للصحفييـن الأدوات اللازمـة لفهـم القضايـا المجتمعيـة والاتجاهـات وأحيـاناً السـلوك البشـري، ممـا يمكنهـم مـن إنتـاج قصـص متكاملـة مبنيـة على الأدلـة.

تعتمـد الصحافة بشـكل واضح ومباشـر على أساسـيات منهـج البحـّث فيً العلـوم الاجتماعيـة، مـن خلال آليـات مثـل الملاحظـة والتحليـل وتفسـير الظواهـر. كمـا تسـتخدم أدوات العلـوم الاجتماعيـة بشـكل متقاطـع أو نسـبي في إنتـاج مضامينهـا وذلـك مـن خلال البعـد الكمـي؛ لتحديـد الأنمـاط والاتجاهـات والارتباطـات، والذي يشـمل جمـع البيانـات واسـتطلاعات الـرأي والتعامـل مـع البيانـات عبـر التحليـل والمقارنـة والمؤشـرات والإحصـاءات، لاسـيما في الصحافـة الاقتصاديـة وصحافـة الحـوادث، وصحافـة البيانـات، التـي أصبحـت جنسـاً مسـتقلاً يعتبـر جسـراً أساسـياً بيـن الصحافـة والعلـوم الاجتماعيـة وعلـم الإحصـاء أو من خلال البعـد النوعـي المضموني، الـذي يقدم معرفـة أعمـق للظواهـر. ويشـمل ذلـك أدوات مثـل المقـابلات، كمصـادر مـن درجـة أولـى لبنـاء القصـة، وهـي أداة مسـتخدمة على نحـو واسـع في العلـوم الاجتماعيـة، وكذلـك «الصحفـي المشـارك»، على قيـاس الباحـث المشـارك، الـذي ينخـرط في تجربـة واقعيـة ضمـن الظاهـرة التـي

يبحث فيها وحولها، مثل الصحفيين الذين يخترقون مجموعات مغلقة أو الذين يقومون برحلات طويلة لمعايشة بيئات أو أماكن لإجراء تحقيقات استقصائية. وتمثل هذه الأداة البحثية التي يتماهى فيها أحياناً الذاتي مع الموضوعي، وسيلة لفهم أعمق للتفاعلات الاجتماعية والظواهر، تُمكّن الصحفي من تقديم مضمون ذي جودة عالية.

وضمن هذا البعد النوعي، نجد أيضاً تقاطعاً كبيراً بين العلوم الاجتماعية والصحافة في توظيف «الإثنوغرافيا»، المنهج النوعي المستخدم في الأنثروبولوجيا لدراسة مجموعات اجتماعية وثقافية بعمق. ويستخدم هذا المنهج بشكل واسع اليوم في الصحافة الاستقصائية، حتى تكاد الخطوط بين الصحفي والباحث الأنثروبولوجي تختفي أحياناً. تشغل الإثنوغرافيا حيزاً هاماً اليوم في الأجناس الصحفية الرصينة.

> **اليوم، ومع تطور وسائل غير صحفية في شغل موقع الصحافة في نقل الأخبار؛ كالمنصات الاجتماعية، أصبح المنتج الصحفي المعزز بمناهج العلوم الاجتماعية الامتياز الذي يحقق فرادة الصحافة في مواجهة منافسيها غير التقليديين.**

وربما دفع اتساع هذا الحيزّ الصحفيةَ وعالمةَ الأنثروبولوجيا آن كريستين هيرمان إلى نحت مصطلح «الصحافة الإثنوغرافية»(3) أو «الصحافة الأنثروبولوجية» كما يسميها البعض والتي تشير إلى أنه في وقت يفرض فيه التعدد الثقافي تحديات واضحة على الصحافة ووسائل الإعلام، وتتطلب الاتجاهات المزيد من التقارير السياقية، تظهر الصحافة الإثنوغرافية جنساً مستقلاً يوظّف إستراتيجيات الانغماس المستمدة من العلوم الاجتماعية لأغراض سرد القصص. وتقترح الباحثة أن تتطور الصحافة الإثنوغرافية كشكل من أشكال الوساطة بين المجالين: الصحفي والعلمي؛ للمساعدة في معالجة نقاط الضعف في كليهما


في العالم العربي، يضاف تحد آخر يمكن أن يشكل عائقاً أمام تطور الأجناس الصحفية التي تعتمد مناهج العلوم الاجتماعيةٍ لتعميق منظور الصحافة تجاه الظواهر والأحداث، وهو حرية الوصول للمعلومات والبيانات والوثائق، وحرية التنقل والاجتماع (شترستوك).

سواء كان ذلك فيما يتعلق بصرامة التجريد الذي يخشى الصحفيون التعامل معه أو الانفصال بين مصطلحات علماء الإثنوغرافيا والفهم العام للقضايا ذاتها التي يسعى الباحثون إلى توضيحها.

تشكل الإثنوغرافيا - اليوم وأكثر من أي وقت مضى - فرصةً منهجية للصحافة للمحافظة على موقعها الاجتماعي والمعرفي في ظل المنافسة من المنصات الاجتماعية، بكل ما تجره من أخطار على المهنة وأخلاقياتها؛ حيث تقدم الإثنوغرافيا - بصفتها ممارسة بحثية تقوم على اندماج الباحث أو الصحفي لفترات طويلة في موضوعه ومعايشته من الداخل لاكتساب معرفة وثيقة بديناميكيته - السبيل المنهجي للصحافة للعودة

> **نجد تقاطعاً كبيراً بين العلوم الاجتماعية والصحافة في توظيف «الإثنوغرافيا»، المنهج النوعي المستخدم في الأنثروبولوجيا لدراسة مجموعات اجتماعية وثقافية بعمق. ويستخدم هذا المنهج بشكل واسع اليوم في الصحافة الاستقصائية، حتى تكاد الخطوط بين الصحفي والباحث الأنثروبولوجي تختفي أحياناً.**

إلى أساسها الرصينّ، وتقيم جسراً بين الجمهور والعالم في راهنه. وتكشف الأمثلة الريادية لهذا النوع من الصحافة عن قوتها في الوصول إلى الجمهور، وجودة مضمونها ذي المصادر الأصلية كما في العمل الطليعي الذي قامت به الصحفية باربرا إيرينرايش، التي اشتغلت عاملةً ذات أجر منخفض بين 1998 و2000، لتوثيق معاناة البقاء على قيد الحياة بأجر أدنى في صفوف الفئات الهشة اجتماعياً. وقد سلطت - من خلال تحقيق طويل نُشر في مجلة هاربر - الضوء على قضايا حساسة مثل الفقر، والرعاية الصحية غير الكافية، وممارسات العمل الاستغلالية. وقد نُشر العمل لاحقاً في كتاب مستقل عام 2001 تحت عنوانٍ « نيكل ودايمد: عن العجز في أمريكا» (4).



تقدم الإثنوغرافيا - بصفتها ممارسة بحثية تقوم على اندماج الباحث أو الصحفي لفترات طويلة في موضوعه ومعايشته من الداخل لاكتساب معرفة وثيقة بديناميكيته - السبيل المنهجي للصحافة للعودة إلى أساسها الرصينّ (تصوير: ياب أرينز - غيتي).

وكذلك عمل الصحفية الاستقصائية الأمريكية كاثرين بو «خلف الجمال الأبدي: الحياة والموت والأمل في مدينة مومباي» (5)، الذي فاز بالجائزة الوطنية للكتاب غير الروائي في الولايات المتحدة عام 2012 ووصل إلى نهائيات جائزة بوليتزر للكتاب عام 2013 وهو ثمرة معايشة يومية لكاثرين بو مع سكان أناوادي - أحد الأحياء الفقيرة في مومباي الهندية لسنوات - رسمت من خلالها صورة قاتمةً عن الفقر؛ إذ يكافح السكان لتلبية احتياجاتهم الأساسية وسط تفاوت متزايد في الثروة وكذلك حول مفارقة العولمة، التي غالبًا ما تتجاوز فوائدها المجتمعات المهمّشة. فبينما تقع أناوادي على مقربة من رموز التقدم الاقتصادي، كالفنادق الفاخرة والمطار، ما يزال سكانها مُستبعدين من هذه التطورات فضلاً عن التحليل الإثنوغرافي الرائع لأدوار النساء وتوقعاتهن في أناوادي المتوترة بين الأدوار الجندرية التقليدية والتطلعات الحديثة.

> من شأن توسيع أدوات العمل الصحفي لتشمل المناهج العلوم الاجتماعية، أن يعزز مصداقية المضمون الصحفي لدى الجمهور، وينتج قصصا أكثر توازناً؛ لأن هذه المناهج تنجح في مقاربة تعقيدات الظواهر والتجارب، ووضعها في سياقاتها التاريخية والثقافية، وتكشف خاصة ما وراء الأخبار، مثل التحيزات السياسية والطائفية، والتأثيرات غير المرئية على الإنسان والبيئة وغيرها.

الفوائد والمحاذير

من شأن توسيع أدوات العمل الصحفي لتشمل المناهج العلوم الاجتماعية، أن يعزز مصداقية المضمون الصحفي لدى الجمهور، وينتج قصصا أكثر توازناً؛ لأن هذه المناهج تنجح في مقاربة تعقيدات الظواهر والتجارب، ووضعها في سياقاتها التاريخية والثقافية، وتكشف خاصة ما وراء الأخبار، مثل التحيزات السياسية والطائفية، والتأثيرات غير المرئية على الإنسان والبيئة وغيرها من الخلفيات التي تحتاج بحثاً أعمق. أما الفائدة الأكبر فهي جعل الظواهر الأكثر تعقيداً في الاقتصاد والسياسية والمجتمع سهلة وفي متناول الجمهور لفهمها وتكوين رأي بشأنها؛ حيث يفتح استخدام البيانات وتحليلها إمكانيات جديدة لسرد القصص من خلال الرسوم البيانية التفاعلية والخرائط الرقمية والعروض التقديمية المتعددة الوسائط.

في المقابل ثمة العديد من التحديات والمحاذيرّ المنهجية التي تجعل من تطوير نهج صحفي قائم على العلوم الاجتماعية أو دمجهما لاستخراج شكل جديد من المعرفة مساراً تعترضه الكثير من الصعوبات. أولها: نموذج العمل المختلف تماماً بين المجالين؛ فمن جهة تقوم الصحافة على تخصيص قدر من الموارد الفنية والمالية والزمنية المحددة جداً لإنتاج مضمون ينتظره الجمهور بينما يحتاج إنتاج مضمون وفقاً لمنهج العلوم الاجتماعية - من حيث الجودة والصرامة - إلى وقت أطول وموارد أكبر، مما يجعل مسألة التوافق بين المنهج والانتظارات غير متطابقة، إلا في حالات تتعلق بالتحقيقات الاستقصائية طويلة الأمد فضلا عن حذر المؤسسات الصحفية والإعلامية - التي هي مؤسسات تراعي نموذجاً ربحياً أو اقتصادياً يسعى للاستدامة - من تخصيص موارد كبيرة لإنتاج مضامين ذات عمق يراعي مناهج البحث الاجتماعي.

كما يفرض نقص الموارد البشرية في هذا المجال نفسه كتحد أساسي؛ حيث لا يتمتع إلا عدد قليلٌ من الصحفيين بالتدريب والتكوين المعرفي الضروري لإنتاج مضامين وفية لمناهج البحث الاجتماعي، إما بسبب غياب هذا النوع من التكوين في كليات ومعاهد الصحافة أو بسبب إحجام المؤسسات الإعلامية عن استثمار موارد إضافية لتدريب كوادرها الصحفية على هذا النوع من العمل.

وفي العالم العربي، يضاف تحد آخر يمكن أن يشكل عائقاً أمام تّطور الأجناس الصحفية التي تعتمد مناهج العلوم الاجتماعية لتعميق منظور الصحافة تجاه الظواهر والأحداث، وهو حرية الوصول للمعلومات والبيانات والوثائق، وحرية التنقل والاجتماع؛ ذلك أنه - في كثير من الحالات - قد تكون البيانات ذات الصلة غير متاحة، أو غير كاملة، أو يصعب الوصول إليها بسبب القيود القانونية، أو بسبب الافتقار إلى الشفافية، أو تعتيم السلطات المتعمد عليها. إنّ البحث الصحفي يحتاج قدراً من حرية الصحفي وحرية وصوله إلى المعلومة، وبدونهما لا يمكن إنتاج مضمون عميق يراعي صرامة منهج العلوم الاجتماعية وموثوقيته وعمقه. ولعل مسألة الحرية، هي التي تشكل أكثر العقبات صلابة أمام تطور العلوم الاجتماعية نفسها في العالم العربي، بسبب سيطرة السلطة على الوثائق والمعلومات وبسبب تقييد حرية الباحث في اختيار موضوعات بحثه وكذلك في إدارة عملية البحث ومخاطبة المصادر الأصلية بشكل مباشر وبلا قيودٍ.



تستخدم أدوات العلوم الاجتماعية بشكل متقاطع أو نسبي في إنتاج مضامينها من خلال البعد الكمي؛ لتحديد الأنماط والاتجاهات والارتباطات، والذي يشمل جمع البيانات واستطلاعات الرأي والتعامل مع البيانات عبر التحليل والمقارنة والمؤشرات والإحصاءات (تصوير: غيتي).

المراجع

(1) في عـام 1912، عُيّـن إريـك دبليـو أليـن، الـذي كان محـرراً في صحيفـة سـياتل بوسـت إنتليجنسـر، لإنشـاء قسـم الصحافـة في جامعـة أوريغـون، وقـد ظـل عميـداً للكليـة حتـى وفاتـه عـام 1944. ونشـر أليـن في مـارس 1927، ورقـةً بعنـوان «الصحافـة كعلـم اجتماعـي تطبيقـي»
«Journalism as Applied Social Science.» Journalism & Mass Communication Quarterly 4, no. 1.

(2) Weaver, David H., and Maxwell E. McCombs. "Journalism and Social Science: A New Relationship?" The Public Opinion Quarterly 44, no. 4 (Winter 1980): 477–494.

(3) Hermann, Anne Kirstine. "Ethnographic Journalism." Journalism 17, no. 2 (December 11, 2014): 220–235. https://doi.org/10,1177/1464884914555964.

(4) - Ehrenreich, Barbara. Nickel and Dimed: On (Not) Getting by in America. New York: Henry Holt and Company, 2001.

(5) Boo, Katherine. Behind the Beautiful Forevers: Life, Death, and Hope in a Mumbai Undercity. New York: Random House, 2011.

تدريس الصحافة والعلوم الاجتماعية.. خصومة راسخة؟

سعيد أبو معلا

في شمال الضفة الغربية، عاش طلبة الصحافة تجربة مختلفة مع «بدو الأغوار» لمدة ثلاثة أيام، جربوا فيها الاشتباك بالميدان في سياق ممارسة «الصحافة بالمجاورة» تحت إشراف الدكتور منير فاشة. خارج قاعات الدرس اختبر الطلبة أدوات قادمة من العلوم الاجتماعية رغم أن دراسات موثقة تبرز الخصومة الراسخة بين تدريس الصحافة في تقاطعها مع العلوم الاجتماعية والإنسانية.

في عام 2014 نظم مركز تطوير الإعلام في فلسطين "دورة تفاعلية مع بدو الأغوار" في وادي المالح شرق محافظة طوباس شمال الضفة الغربية. تضمنت الدورة إقامة المشاركين والمشاركات في المنطقة لمدة 3 أيام، تحت إشراف المفكر الفلسطيني الدكتور منير فاشة، مؤسس مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، و"الملتقى التربوي العربي" في مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد.

شارك في الدورة - أو من باب الدقة أكثر - في البرنامج التعليمي القائم على المجاورة طلبةُ إعلام من أكثر من جامعة فلسطينية مركّزين على مفهوم "الإعلام بالمجاورة" الذي اقترحه فاشة بديلا من بدائل الإعلام والاتصال في ظل التطورات التكنولوجية والرقمية الحاصلة في حقل الصحافة.

أثناء التدريب، قال الخبير التربوي إن برنامج التعليم يرمي إلى تعليم وتعلم ممارسة الصحافة بالمجاورة، ضمن مفهوم جديد يستعيد جزءا كبيرا من ثقافتنا الطبيعية والتاريخية؛ حيث العيش والتعلم والتحادث والتعامل والعمل بشكل حر وصادق خارج أي إطار مصطنع أو شرط اجتماعي.

كانت رؤيته تقوم على أن الهدف من البرنامج هو "تحقيق العافية الاجتماعية وحماية الحياة، ودون استعمال كلمات صُنعَت في أوروبا يتعلق أغلبها بالتقدم عبر أدوات ومفاهيم ترتبط بالسيطرة والفوز والتخريب". (1)

تعيد تجربة فاشة الاعتبار للمجتمع بدلا من التركيز على "الجمهور"، حيث صرح وقتها: "وفق برنامج الاتصال بالمجاورة يتحول الأهالي إلى مواطنين، وتستعاد كلمات ومعانٍ منبعها الحياة والحضارة، على أمل الاستمرار في استخدام هذه الكلمات في حياتنا اليومية؛ حيث يكون التحدث عن الأهالي "باعتبارهم الأمل والوسيط" من خلال لغتهم هم، وليس بشكل عام ومجرد، وهي أدوار قد يقوم بها الصحفيون بشكل أصيل".

لقد أنتج الطلبة المشاركون في درس "التعليم بالمجاورة" مواد صحفية تحقق مفهوم "الإعلام بالمجاورة" بعد أن جمعوا مقابلات من أهالي الأغوار الشمالية الفلسطينية عن احتياجاتهم وهمومهم، حتما كانت المخرجات مختلفة عن تلك التي تنجز من المكاتب وعلى إيقاع النشر الحديث، غير أن الأهم في هذه التجربة أنها ستجعل الطلبة المشاركين على علم ودراية أكبر بواقع مجتمع الأغوار الفلسطيني بالاحتكاك المباشر في الميدان.

للمدقق يبدو أن هذا الدرس الحيوي والتفاعلي من نوع مختلف تماما؛ أي أنه درس قادم من عالم لا يمتّ بصلة لطريقة تدريس الجامعات بصفتها "مؤسسات" تسيّجها جدران مانعة إلا نادرا، وهو ما جعل من هذه التجربة حدثا لم يتكرر.

من الواضح أن هذا النموذج الملهم - الذي يقوم على التأمل والتجربة واللقاءات والحوار – يشكل نقيض تجارب تدريس الصحافة في العالم العربي التي يقتصر جلها على قاعات ومختبرات الدرس، علما أن الجامعات التي تطورت كما ونوعا متجاهلة الالتحام والتواصل الفعال مع المجتمع، تتجاهل أيضا العلوم الاجتماعية بصفتها تخصصات لصيقة بحقل الإعلام، وبدل أن يقوم فعل تعويضي أو موازٍ لعملية التدريس عبر عملية دمج أو توظيف العلوم الاجتماعية لخدمة تدريس الصحافة، يحدث العكس تماما.

هكذا يحرم الحقل الصحفي من عملية مهنية ومخططة لتوفير إطار معرفي بالمجتمع الذي يتشابك ويصبح أكثر تعقيدا، ويخضع للتغيير والتحولات الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية والدينية والثقافية... إلخ.

ظل البرنامج التعليمي فكرة ملهمة لكيفية تحقيق تواصل فعال وحقيقي بين طلبة الصحافة والإعلام والمجتمع الذي يفترض أنهم التحقوا بجامعاتهم ليصبحوا "وكلاء" معبرين عنه، فالصحافة - في جوهرها - جزء من عمليّة اجتماعيّة، لكنّ عدم تكرار هذه التجربة يعود لأسباب كثيرة أبرزها وجود خلل بنيوي في فكرة الجامعة بصفتها مؤسسة تعليمية أو مؤسسة تقليدية لإنتاج المعرفة.

> **أثناء التدريب، قال الخبير التربوي إن برنامج التعليم يرمي إلى تعليم وتعلم ممارسة الصحافة بالمجاورة، ضمن مفهوم جديد يستعيد جزءا كبير من ثقافتنا الطبيعية والتاريخية؛ حيث العيش والتعلم والتحادث والتعامل والعمل بشكل حر وصادق خارج أي إطار مصطنع أو شرط اجتماعي.**

الصحافةُ وعياً بالمجتمع

أثناء تدريسي مساقات الصحافة المختلفة وتحديدا لطلبة السنة أولى أشدد دائما على مبدأ أن

طفلة الأغوار دنيا: أحلم بأن أعيش كالفتيات اللواتي أقرأ عنهن في الروايات

زينب حمارشة *

شقت من طريق الوجع أملا واتخذت من قنديل الكاز نورا بعد أن علقت جدول امتحانات الثانوية العامة على قماشة خيمتها أملة أن تنهي هذه المرحلة وتلتحق بإحدى الجامعات لإكمال مسيرتها التعليمية والالتحاق بتخصص اللغات والترجمة.

دنيا القاضي فتاة من عين الحلوة بمنطقة المالح والأغوار الشمالية، تكابد مرارة العيش، وتشهد أحداث البؤس رغم عمرها الذي لم يتجاوز ثمانية عشر ربيعا.

في حديث لجريدة «الحال» بعفها قالت أنا طفلة أحلم بأن أعيش كالفتيات اللواتي أقرأ عنهن في الروايات، أحلم بأن أعيش في بيئة تطبق ما تعلمنا إياه المناهج المدرسية وتعطي أطفالها وأبناءها حقوقهم في اللعب والتعلم والحياة كباقي أطفال العالم، أحلم بأن أعيش في بيت بجدران، وأسقف، وبيوت صحية وأمنة بعيدة عن أصوات المدويين والمحتلين وأناشد المسؤولين اليوم إنارة خيمتي بالكهرباء، فلا أريد شم رائحة الكاز، وأريد أن أستعد جيدا لتقديم امتحانات الثانوية العامة.

نشأت دنيا القاضي في عائلة ممتدة مكونة من تسعة أفراد، تعيش في ثلاث خيام ملاصقة بعضها لبعض، أرضيتها تراب وسقفها من الزينكو، تحدها من الجهات الأربع معسكرات تدريبية ومستوطنات. أمها من عائلة مناضلة، فثلاثة من إخوتها شهداء، واثنان أسيران عند الاحتلال، ورغم ذلك تكثف بكل جبروتها على خيمتها لتناضل من أجل أبنائها وعيشهم.

أما والدها فيعمل في تربية الحيوانات ويعاني من وضع مالي صعب، وقد زادت حدة أزمته المالية هذا العام سوءا بسبب حالة الجفاف وقلة الأمطار. يقول والد دنيا: «لو كنا نعيش في منطقة خارج المالح فلن يكفينا ما نجنيه من الثروة الحيوانية شيء».

وبحكم طبيعة المنطقة هناك وتباعد القرى بعضها عن بعض، تجد دنيا صعوبة في الوصول إلى مدرستها الواقعة في تياسير، والتي تبعد عن خيمتهم حوالي عشرة كيلومترات.

أما ما هو أشد مرارة فهو محدودية وقت دنيا لمراجعة دروسها، فهي تضطر جاهدة لاستغلال ضوء شمس النهار حتى تنهي واجباتها وتحضيرها اليومي، وما إن تغيب الشمس حتى تخلد للنوم تاركة ما تبقى لضوء فجر جديد، مثلها مثل باقي أبناء المنطقة، فحتى اللحظة ما زالت في منطقة المالح أكثر من 450 عائلة تستخدم قناديل الكاز. يقول رئيس مجلس قروي الأغوار الشمالية عارف دراغمة: «هذا العام سيتقدم لامتحان الثانوية العامة ستة طلاب من المنطقة دون أن يتوفر لهم أي مصدر إنارة إلا قناديل الكاز».

الحل هو الطاقة الشمسية

تمتاز منطقة المالح والمضارب بأنها منطقة صحراوية، درجة الحرارة فيها مرتفعة جدا، وفي القرن الحادي والعشرين ما زالت البنية التحتية للمساكن فيها رديئة جدا، وينقصها كثير من مقومات الحياة من مياه وطاقة شمسية ونحو 450 عائلة تعيش بلا إنارة، مستخدمة قناديل الكاز لقضاء حوائجهم بعد غياب ضوء الشمس.

وفي محاولات سعي جادة لتوفير مصدر إنارة للعائلات، أكد دراغمة أنه تم التوجه إلى المؤسسات الحكومية والأهلية والإنسانية بأكثر من 40 رسالة من أجل توفير وحدات من الطاقة الشمسية، لكنه لم يتلق أية ردود حتى الآن على الرسائل المرسلة.

ويقول دراغمة إنه استطاع من خلال التعاون مع مؤسسة ألمانية وجامعة النجاح الوطنية توفير 30 وحدة شمسية وضعت في منطقة المشحون والحديدية وبرزا، ولكن هذا العدد لا يسد حاجة 400 عائلة من الإنارة.

أما رد سلطة الطاقة، فقد أكد المهندس باسل ياسين أنه تلقى العديد من الرسائل من رئيس مجلس الأغوار الشمالية والمالح، ولكن سلطة الطاقة والسلطة الفلسطينية بشكل عام لا توجد لديها سيطرة كاملة على هذه المناطق التي تصنف كمناطق (ج)، لذلك فإن لها النصيب الأقل حظا من المشاريع وخصوصا مشاريع البناء والكهرباء، فالحل في هذا الوضع هو اللجوء إلى الطاقة الشمسية التي تقوم على مبدأ التخزين في النهار حتى يتم استغلالها في إضاءة أجهزة بسيطة كثلاجة، وضوء فلورسنت وتلفاز.

وقال ياسين إن الطاقة الشمسية تحتاج ميزانية معينة، وإنه سيتم التوجه إلى المكونات الخارجية كمقترحات لمشاريع في مناطق الأغوار وكافة التجمعات البدوية المبعثرة التي لا تصلها الكهرباء، مؤكدا أن سلطة الطاقة الآن تسعى بكل جهودها من أجل توفير وحدات الطاقة الشمسية لهذه التجمعات.

تنتظر دنيا وأملها أن تتقدم لها مؤسسة أو بوحدة طاقة شمسية قد توصل النور إلى حلمها الذي ما زال في العتمة ويمنحها طاقة تخرجها من الحلم إلى الواقع.



حلم دنيا الكبير أن تدرس دون أن تشم رائحة الكاز

* طالبة في دائرة الإعلام بجامعة بيرزيت



نساء الأغوار يُنجبن على الطرقات وفي الشاحنات

جنان أسامة السلوادي

لا تتوقف معاناة أهالي الأغوار في محافظة أريحا عند اعتداءات الاحتلال والتضييق المستمر عليهم، لترحيلهم من سلة فلسطين الغذائية، ولا عند شح المياه وحصر مناطق الرعي، بل إن تلك المنطقة تفتقر إلى العيادات الطبية، ولا تتوفر للمرضى سيارة إسعاف تنقلهم إلى أقرب العيادات التي قد تبعد 15 كيلومترا.

في الأغوار، كثير من النساء أنجبن في الطريق الطويل إلى المستشفى، أما معرفة جنس الجنين فترف لا تسعى إليه معظم النساء هناك.

«الحال» زارت منطقة الأغوار والتقت عددا من ... طبيب فأنجبت جنيني على الطريق، وعندما وصلت الخيمة مات الجنين، وكل ذلك بسبب تأخر سيارة الإسعاف، فدفن وهي المولود بين الصخور. كما أجهضت فاطمة بعد جنينها وهي في شهرها السادس، لتردي الوضع الصحي في المنطقة وعدم الحصول على الرعاية الطبية اللازمة.

ولادة بالطرق البدائية

أما عائلة خليل وهيام ضرائعة وغيرهما العشرات، فقد أنجبن بالطرق البدائية ومدهن دون مساعدة داخل الخيام، ودون رعاية أو أي أدوات المساعدة في عملية الولادة، وقالت إحداهن إن تلك النساء في المضارب البدوية لا يعرفن

> نموذج من المواد الصحفية التي أنتجها الطلاب المشاركون ضمن مفهوم «الإعلام بالمجاورة»
> (صحيفة الحال الصادرة عن مركز تطوير الإعلام المشاركون بجامعة بيرزيت - العدد 106).

الصحفي "وكيل المجتمع"، وأحث الطلبة على استحضارها في مسارهم لفهم دورهم وعلاقتهم بالمجتمع، وإدراك السلطة الشرعية التي يمتلكونها وتخولهم دخول منازل المواطنين وعرض قضاياهم إنها عبارة يفترض أن توجه بوصلتهم أمام تنامي النقاش حول التقنية وصناعة الإعلام ومفاهيم الريادة ومتطلبات السوق (كمكان العمل وكالجمهور)، لكنها لا تفلح في تحقيق المراد منها لكونها معزولة عن السياق العام لعملية التدريس، وكذلك لغياب الربط المؤسسيّ بين مهارات الصحافة وممارساتها التقنية وعملية الفهم والوعي بالمجتمع الذي توفره حقول العلوم الاجتماعية المختلفة. ويشير مصطلح العلوم الاجتماعية إلى مجموعة من التخصصات الأكاديمية التي تهتم بالمجتمع وعلاقات الأفراد مع بعضهم داخل المجتمع مثل: علم الإنسان وعلم الاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع. وقد يشمل غالبًا بمعناه الأوسع العلوم الإنسانية مثل علم الآثار والدراسات الإقليمية ودراسات الاتصالات والدراسات الثقافية والتاريخ والقانون وعلوم اللغة والعلوم السياسية...

وفق التعريف السابق، يتضح أن حقل الصحافة والإعلام قُدَّ من نفس "قماشة" حقول العلوم الاجتماعية مثل علم الاجتماع وعلم النفس..

وللدقة يمكن القول إن علم الاتصال علم حديث خرج من رحم العلوم الاجتماعية، وأي محاولة أو عملية لفصله التعسفي عن غيره من الحقول المعرفية في الجامعات "كارثة حقيقية"، وصلت حدودها في عدم استفادة كليات الصحافة والإعلام من تخصصاتها القريبة، بل أصبح عاديا التفاخر بعملية الفصل حتى إن دراسة عربية بعنوان "نظم تعليم الصحافة والإعلام في دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: مشكلات قديمة مستمرة وتحديات جديدة" توصلت إلى أن " مسألة لجوء العديد من الجامعات إلى تكليف أساتذة من تخصصات متعددة في العلوم الاجتماعية والإنسانية للتدريس في برامج الصحافة والإعلام" يُعتبر عيبا ونقيصة.

> **لقد أنتج الطلبة المشاركون في درس «التعليم بالمجاورة» مواد صحفية بعد أن جمعوا مقابلات من أهالي الأغوار الشمالية الفلسطينية عن احتياجاتهم وهمومهم، حتما كانت المخرجات مختلفة عن تلك التي تنجز من المكاتب وعلى إيقاع النشر الحديث.**

وخلصت الدراسة أيضا إلى أن تأثير مدارس وكليات ومعاهد الإعلام بقي محدوداً في تطور إعلام مهني وصناعة إعلامية مستقلة إلى جانب العوامل الأخرى المرتبطة بالتطور السياسي والاجتماعي للدول المستهدفة. (2)

وشملت الدراسة رصد ومراجعة البرامج التعليمية في 120 مؤسسة تعليم عال في تسع دول هي الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان والعراق ومصر وتونس والجزائر والمغرب، وتوصلت إلى أن البرامج والتخصصات التقليدية مسيطرة على خارطة البرامج التعليمية التي تقدمها هذه المؤسسات، وأن معظم هذه البرامج متشابهة ومكررة، مع غياب برامج تعليمية حديثة تتماشى مع الاتجاهات المعاصرة.

ورأت أيضا أن هناك نقصا حادا في أعضاء الهيئات التدريسية المتخصصين في مجالات الصحافة والدراسات الإعلامية والاتصال الجماهيري، وأن هناك استمرارا للأساليب التقليدية في تعليم مساقات الإعلام ومقاومة بعض الأساتذة للتغيير، وكذلك ضعف الخبرات المهنية لأعضاء الهيئات التدريسية.

أما الأكاديمية اللبنانية الدكتورة وفاء أبو شقرا فتنطلق من حقيقة العلاقة البديهية بين علم الاجتماع وحقل الإعلام، فالأول يتناول جميع نماذج العمليّات التي تحدث في المجتمع، كالتعاون والتنافس والصراع والتوافق والتثقيف والتنشئة والتنمية وإدارة الأزمات وغيرها، وهي كلّها عمليّات يؤدي فيها الفعل الاتصالي - بشتّى عناصره ووسائله - دوراً محوريّاً فيجعل الصحفيين بحاجة إلى "العدّة" المفاهيميّة للعلوم الاجتماعية، من أجل القيام بكافّة الوظائف الإعلاميّة. (3)

لقد قامت أبو شقرا بالتقصي في عيّنة من جامعات تسع دول عربيّة فيها كليّات للصحافة، بغية التعرّف على مدى اعتمادها لمنهج "متعدّد التخصّصات" لتصل إلى خلاصة؛ مفادها أن هذه الجامعات تركّز كثيراً على التأطير النظري والنواحي التقنيّة والتطبيقيّة، وهو ما يجعلها متقاربة إلى حدٍّ بعيد مع ما



تعيد تجربة «الإعلام بالمجاورة» الاعتبار للمجتمع بدلا من التركيز على «الجمهور» إذ تمكن الصحفيون من التواصل الفعال ومعايشة هموم الأهالي عن قرب (تصوير: عصام ريماوي - غيتي).

تقدّمه مراكز التدريب الصحفي، وفي المقابل، هناك نقصٌ واضح في تدريس كلّ ما من شأنه أن يزوّد الطالب بمعارف في المجالات المتداخلة بقوّة مع اختصاصه.

> للمدقق يبدو أن هذا الدرس الحيوي والتفاعلي من نوع مختلف تماما؛ أي أنه درس قادم من عالم لا يمتّ بصلة لطريقة تدريس الجامعات بصفتها «مؤسسات تسيّجها جدران مانعة إلا نادرا، وهو ما جعل من هذه التجربة حدثا لم يتكرر.

خارج تخصص الصحافة، بمعنى أن طالب الصحافة يمكنه أن يختار من تخصصات العلوم الاجتماعية حزمة من المساقات تصل إلى 40٪ من المساقات التي عليه اجتيازها للتخرج. ولعل ميزة هذا الشكل الديموقراطي من التعليم أنه يمنح الطالب مساحة واسعة من الحقول العلمية التي يختارها وفق ميوله واهتماماته أو من خلال إرشاد طاقم كلية الصحافة وتوجيههم له. وما تعكسه هذه التجربة هو حالة من المرونة في الخطط الدراسية وانفتاحها على حقول العلوم الاجتماعية بإكساب الطلبة المعرفة الواسعة والعميقة في مواضيع يختارونها أثناء دراسة تخصص الصحافة.

ورغم فعالية هذا النظام واستجابته لحاجة ملحة تتمثل في توطيد العلاقة مع العلوم الاجتماعية فإنه يواجه تحديات جسيمة؛ من أبرزها تعدد الموضوعات التي يتعين على طالب الصحافة دراستها، التي تتزايد باستمرار بفعل الطفرات التكنولوجية المتلاحقة، فضلا عن الإشكاليات الداخلية التي تعاني منها معظم كليات الإعلام وأقسام الصحافة.

يشكل فهم الصحفي لدوره وسلطته في زمن تهمين فيه المنصات الرقمية وتُتاح الفرصة للجميع بأن يكون ناشرا، التحدي الأبرز الذي يواجه الصحفي اليوم. وكي يحدث ذلك علينا أن نبذل جهدا كبيرا لفكّ حالة الخصومة الراسخة بين الصحافة والعلوم الاجتماعية؛ فالجزر المعزولة التي نعيش في فيها تتناقض مع التداخل الحاصل بين الحقول، وهي تداخلات تفرضها تطورات العصر مثلما فرضتها سابقا مراحل تطور العلوم المعرفية ذاتها.

انطلاقا من هذه العناصر، نطرح السؤال الأبرز: كيف يمكن تدريس العلوم الاجتماعية للطلبة الصحفيين في ظل صعوبات كثيرة في مقدمتها طبيعة الخطط الدراسية، وتنامي متطلبات العمل الصحفي بفعل التطورات التكنولوجية، وتراجع حضور العلوم الاجتماعية في الجامعات ذاتها؟ علينا الاعتراف أن التعليم في الجامعات عملية غير ديمقراطية؛ لأن الطالب حتى وهو يختار تخصصه الدراسي، سيبقى أسيرا لخطط التدريس الجامدة والمقيدة التي تحدّد طبيعة تحصيله المعرفي. وأستحضر في هذا السياق تجربة تقدمها إحدى كليات الصحافة في الجامعات الأمريكية؛ إذ توفر إمكانية واسعة لاختيار الطالبِ مجموعةً من المساقات التي تطرحها الكليات في إحدى الحقول الإنسانية والاجتماعية

المراجع

1) موقع نوى. "مركز تطوير الإعلام يختتم 'دورة تفاعلية مع بدو الأغوار'." رام الله: موقع نوى، 2014. https://www.nawa.ps/ar/post/10564.

2) الطويسي، باسم. "نظم تعليم الصحافة والإعلام في دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: مشكلات قديمة مستمرة وتحديات جديدة." عمّان: معهد الإعلام الأردني، 2018.

3) أبو شقرا، وفاء. "العلوم الاجتماعيّة في كليّات الصحافة العربيّة.. هل يستفيد منها الطلبة؟» الدوحة: معهد الجزيرة للإعلام، 18 مارس 2024. https://institute.aljazeera.net/ar/ajr/article/2594.

فيليب ماير وولادة «صحافة الدقّة».. قصّة كتاب غيّر الصحافة

محمد زيدان

شـهدت الصحافـة منـذ سـتينيات القرن الماضـي تحـولاً نوعيًـا في أسـاليبها وأدواتهـا، كان مـن رواده الصحفـي والأكاديمـي الأمريكـي فيليـب مايـر، فيمـا عُـرف لاحقًـا بـ«صحافـة الدقـة». في هـذا المقـال، نعـود إلـى كتـاب مايـر الموسـوم بالعنـوان ذاتـه، والـذي قـدّم فيـه دعـوة جريئـة لتبنـي أدوات البحـث العلمـي في العمـل الصحفـي، خاصـة تلـك المشـتقة مـن حقـل العلـوم الاجتماعيـة.

في ستينات القرن الماضي، في كلية الصحافة في جامعة نورث كارولينا، قررت مجموعة من الطلبة كتابة قصة صحفية مشتركة حول الصورة النمطية التي التصقت بسمعة سكّان المدينة التي تحتضن جامعتهم، وهي مدينة «تشابيل هيل»؛ فقد شاع عن المدينة على مدى سنوات طويلة أن أهلها شديدو اللباقة واللطف، وأنه لا يكاد يقترب من هدوء طباعهم سكّان أي مدينة أخرى في الولايات المتحدة كلّها. بدا السؤال الصحفي الأولي الذي اقترحه الطلبة آنذاك محاولةً لفحص هذه الظاهرة وتفكيكها: أهي سمعةٌ نمطيّة اختلقتها الروايات الشعبية، أم حقيقةٌ تصمد أمام الاختبار؟

كان طرح هذا السؤال وصياغته خطوة أولى تنبّه إلى ضرورة تقاطع المادة الصحفيّة مع أدوات استقصائية علمية؛ كتلك المستخدمة في حقل العلوم الاجتماعية. وضع الطلبة/ الصحفيون أمامهم سؤالاً بحثيًا منضبطًا: هل الصورة النمطية الشائعة عن سكّان مدينة تشابيل هيل في ولاية نورث كارولينا حقيقة تسندها الأدلة أم لا؟

حدد الطلبة ذلك السؤال ليكون إطارًا عامًا يسيّر مشروعهم الصحفي في مادتهم. منذ اللحظة الأولى، بدا الاستئناس بالأدوات العلمية شرطًا لا غنى عنه لبناء تقرير معقول يقدم إجابة يمكن الاعتماد عليها في النقاش العامّ حول هذه الظاهرة الاجتماعية. ووضْعُ السؤال بهذه الصيغة سيكون كفيلًا بنقل العمل من حالة التعاطي التقليدي أو الوصف الصحفي للموضوع، إلى حالة من الاستقصاء وجمع البيانات المفيدة، وتفعيل الأدوات والأطر التفسيرية التي تساعد جمهور الصحافة من غير المتخصصين على فهم العالم وظواهره من حولهم.

قدمت المجموعة عددًا من الاقتراحات لاستيراد أداة من ميدان العلوم الاجتماعية قد تساعد في الوصول إلى الإجابة المطلوبة: اقترح البعض تصميم استبانة تُوزع على عينة من سكان المدينة تتضمن أسئلة حول خياراتهم السلوكية في مواقف معينة، أو إجراء مقابلات قصيرة شبه منظمة مع عينة من سكان المدينة، بينما اقترح آخرون الاعتماد على أدوات تحليل المحتوى، والبحث عن الأدلة المتوفرة حول الظاهرة في الصحافة، والدراسات المنشورة، والكتب والمذكّرات.

لكن الأستاذ الصحفي المشرف على الطلبة الذي يشاركهم حماستهم لتوظيف مثل هذه الأدوات البحثية، كان حريصًا على الحفاظ على ذلك الخطّ الفاصل بين الصحافة والبحث العلمي. فثمة هويّة خاصة للعمل الصحفي لا بدّ أن تكون حاضرة كي تحافظ على قدرتها على الوصول إلى أكبر قدر من الجمهور والتأثير فيهم؛ فالعلم مفيد وأدوات البحث العلمي دقيقة، لكن الصحافة أقوى من العلم المجرّد، أو أكثر حيويّة منه. هذا ما يجعل الصحافة صحافة، والعلم علمًا. لذلك وصلت المجموعة بتوجيه من الأستاذ إلى اتفاق على أداة اختبار بسيطة لكنها تدلّ على حس صحفيّ عميق:

يقسّم الطلبة أنفسهم إلى مجموعات، كل مجموعة من طالبين. تنطلق المجموعات الثنائية بسيارات ويقودونها حول المدينة بشكل عشوائي وصولاً إلى أي إشارة ضوئية، إلى حين التمكّن من الوقوف على أول خطّ من الإشارة. يتعيّن على الطالب سائق السيارة في هذا الموقف عدم التحرّك حتى لو فتحت الإشارة، أما زميله الذي بجانبه فسيكون عليه استخدام ساعة المؤقّت، لحساب الوقت الذي سينقضي قبل أن ينفد صبر السائقين خلفهم ويبدؤون بإطلاق الزامور من سياراتهم.

سيكرر الطلبة هذه التجربة أثناء الإجازة في مدن أخرى، لمراقبة سلوك السائقينَ في مثل هذه الحالة خارج المدينة.

اعتمادا على هذا الاختبار البسيط، توصّل الطلبة إلى نتيجة ذات دلالة من خلال حساب مدة صبر السائقين في تلك المدينة الجامعية في تشابيل هيل، ليتبين لهم عند مقارنة النتائج أنها تبلغ ضعف معدل المدة التي جرى تسجيلها في المدن الأخرى.

> بدا السؤال الصحفي الأولي الذي اقترحه الطلبة آنذاك محاولةً لفحص ظاهرة أن سكان المدينة لطفاء، وتفكيكها: أهي سمعةٌ نمطيّة اختلقتها الروايات الشعبية، أم حقيقةٌ تصمد أمام الاختبار؟

لم تكن هذه الأداة المشتقة من حقل العلوم الاجتماعية دالّة ومفيدة في تلمّس ظاهرة اجتماعية وفحصها وحسب، بل وفّرت للصحفيين كذلك «قصّة» طريفة يمكن لتوظيفها السردي المؤنسن في التقرير الصحفي ضمان إثارة اهتمام الجمهور وإقناعهم في الآن ذاته، ليقدّموا شكلا من العمل الصحفي الواعي بضرورة إنتاج مادة صحفية ممتعة من دون التخلّي عن الدقّة في المعلومة. أمّا أستاذهم - وهو الصحفي الأمريكي الشهير فيليب ماير – فقد قرر عند ملاحظته سعة المجال التطبيقي

لهـذا الاتجـاه وفائدتـه تأليـف كتابـه المعـروف: «صحافـة الدقّـة: مدخـل إلـى طرائـق علـم الاجتمـاع للصحفييـن»، الـذي صـدر أول مـرّة عـام 1973، بهـدف المسـاعدة على الإجابـة عـن أسـئلة أربعـة أساسـية:

كيف يعثر الصحفي على المعلومات؟
كيـف يمكـن للصحفـي تقييـم هـذه المعلومـات وتحليلها؟
كيـف يمكـن ترتيبهـا وعرضهـا للجمهـور بما يتجـاوز فوضـى طوفـان المعلومـات والبيانـات؟
كيـف يمكـن تحديد مسـتوى الدقّـة المناسـب صحفيًـا في قصّـة معينـة؟

النقلة نحو العلوم الاجتماعية

كانـت تلـك النقلـة نحـو العلـوم الاجتماعيـة في الصحافـة قـد بـدأت تتشـكّل أسسـها في بعـض الدوائـر الأكاديميـة في الولايـات المتحـدة منتصـفَ السـتينات، أي حيـن بـدأت العلـوم الاجتماعيـة نفسـها تتلمّـس سـبل الاسـتفادة مـن التقنيـات الحاسـوبية في تحليـل البيانـات. (1) ورغـم أن فيليـب مايـر كان أحـد أشـهر روادها عبـر نشـاطه الصحفـي والأكاديمـي، إلا أنّـه لـم يكـن الوحيـد؛ فمـن بيـن مـن رسـموا الخطـوط الأولى للتقاطعـات بيـن العلـوم الاجتماعيـة والصحافـة ماكسـويل ماكومبـس (Maxwell McCombs) والـذي قـدّم عـدة أوراق بحثيـة سـابقة لكتـاب ماير تدافـع عـن تلقيـح الصحافـة بـالأدوات العلميـة والاسـتفادة مـن البيانـات في العمـل الصحفـي. إحـدى هـذه الأوراق نشـرت عـام 1970 في مجلـة «جورناليـزم كوارترلـي» بعنـوان: «نحـو طريقـة علميـة في الصحافـة» (A Scientific Method of Reporting)، تطرقـت إلـى اخـتلاف معنـى العمـل الصحفـي في تلـك الفتـرة عمّـا كان يعنيـه في العقـود السـابقة، وضرورة اعتماد الطرائـق العلميّة في التحليـل الكمـي والنوعـي للحفـاظ على مكانـة الصحافـة والثقـة بهـا وتعزيـز صلتهـا باحتياجـات الجمهـور. كما نشـر ماكومبـس عـام 1971 فـصلًا ضمـن سلسـلة بعنـوان «البحـث العلمـي في مجـال الأخبـار: مـن أجـل صحـف أفضـل» (News Research for Better Newspapers)، وهـي سلسـلة بحثيـة صـدرت في عـدّة مجلـدات مطلـع سـبعينات القـرن العشـرين، عنيـت بنشـر آخـر الأبحـاث العلمية مـن مختلـف المصـادر بشـأن الصحـف وإنتـاج المـواد الصحفيـة وتلخيصهـا لفائـدة العامليـن في المجـال، وتعزيـز القـدرة على تقديـم صحافـة محليّـة دقيقـة وعرضهـا بطريقـة مؤثـرة في الحيّـز (الفضـاء) العـام.

> **الأستاذ الصحفي المشرف على الطلبة الذي يشاركهم حماستهم لتوظيف الأدوات البحثية، كان حريصًا على الحفاظ على ذلك الخطّ الفاصل بين الصحافة والبحث العلمي.**

أمـا ربمـا أوّل مـن صـاغ مصطلـح «صحافـة الدقّـة»، فهـو الخبيـر الإعلامـي الأمريكـي إيفيريـت دينيـس، وذلـك أثنـاء تدريسـه مـادة عـن «الصحافـة الجديـدة» عـام 1971 في جامعـة أوريغـون، (2) اهتمّـت بدراسـة أعمـال مدرسـة جديـدة في الصحافـة الإنسـانية في الولايـات المتحـدة بدأت في السـتينات، وكان مـن أبـرز روادهـا تـوم وولـف، وغـاي تاليـس، ونورمـان ميلـر، وهانتـر طومسـون، واشـتهرت كتاباتهـم في مـجلات عريقـة مثـل الأتلانتيـك، ورولينـغ سـتون، وهاربـرز، ونيويوركـر وغيرهـا. (3)

لكـنّ الفضل في تعميـم هـذه الأفـكار والملاحظـات خـارج الأكاديميـا سـيظل يعـزى إلـى مايـر وكتابـه الـذي نشـرته مطبعـة جامعـة إنديانـا عـام 1973، ثـم صـدر بطبعـة محدثـة عـام 1978 وصـولًا إلـى الطبعـة الجديـدة المحدثـة بالكامـل مـن الكتـاب التـي صـدرت أول مـرّة عـام 1991 بعنـوان «صحافـة الدقّـة الجديـدة» (The New Precision Journalism)، التـي عكسـت نطـاق التطـورات التقنيـة على مسـتوى الممارسـات والأدوات، وتشـتمل على عـرض موسّـع لتاريـخ الصحافـة في التقليـد العلمـي، (4) ثـم صـدرت طبعـة رابعـة موسـعة عـام 2002، تأخـذ بالاعتبـار مـا اسـتجد مـن تطـورات في المجـال.

حيـن بـدأ مايـر العمـل محـررًا في صحيفـة «توبيـكا ديلـي» المحليّـة في ولايـة كنسـاس الأمريكيـة منتصـف خمسـينات القـرن العشـرين، لـم تكـن أجهـزة الحاسـوب قـد انتشـرت بعـد؛ لأنها ضخمـة ومكلفة وبطيئـة ويصعب على غيـر المتخصـص اسـتخدامها. رغـم ذلـك، استشـرف مايـر مكانًـا لهـذه التقنيـات في غـرف الأخبـار، وأغرتـه هـذه المركزيـة للبيانـات في عالـم الحوسـبة وأثـارت فيـه فضـولًا صحفيًـا عميقًـا دفعـه لاستكشـاف إمكانـات اسـتعارة تلـك الطاقـة واسـتغلالها في عالـم الصحافـة. (5)

تعـزّزت تلـك الحاسّـة لـدى مايـر عـام 1967، بعـد انخراطـه في زمالـة بحثيـة للصحفييـن في جامعـة هارفـرد حـاول فيهـا دراسـة ظاهـرة اسـتطلاعات الـرأي في السـياق المحلـي الأمريكـي وتدخـل التقنيـات الحاسـوبية فيهـا.

وقـد تزامـن ذلـك الانشـغال البحثـي لمايـر مـع انتفاضة للأمريكيين السـود ذلـك العـام في مدينــة ديترويــت التابعـة لولايـة ميشـغن، والتـي قتـل فيهـا 23 مدنيًـا على الأقـل. كانـت الرواية التـي تناقلتهـا وسـائل إعلام سـائدة تصر على أن المتظاهرين كانـوا في غالبيتهـم مـن الفقـراء ومـن غيـر المتعلميـن الذيـن هاجـروا إلـى المدينـة مؤخـرًا قادمين من الجنـوب. إلا أنّ مايـر، وبالاسـتفادة مـن أدوات العلـوم الاجتماعيـة ومهارتـه في تقمـص دور الباحـث الاجتماعـي، تمكّن إلـى التوصّل إلـى روايـة أخـرى أكثـر دقّـة تؤكّـد أن المتظاهريـن كانــوا في الواقـع مـن أهـل المدينـة الأصليين وليسـوا مـن المهاجريـن إليهـا، وأنّهـم يتوزّعون على خلفيـات تعليميـة وطبقيـة متعـدّدة.



كتاب: «صحافة الدقّة: مدخل إلى طرائق علم الاجتماع للصحفيين»، والذي صدر أول مرّة عام 1973 (غيتي).

تلـك المسـاهمة الصحفيـة كانـت كافيـة في نظـر لجنـة جائـزة بولتـزر لمنـح الصحيفـة التـي عمـل فيهـا مايـر، «ديترويـت فـري بـرس» جائـزة عـن تغطيتهـا المتزنـة لتلـك الأحـداث العصيبـة. وبهـذا التكريـم الـذي حـازه مايـر عـام 1968 التفتـت الصنعـة الصحفيـة الأمريكيـة إلـى فائـدة اسـتخدام العلـوم الاجتماعيـة وتمكيـن الصحفييـن مـن بعـض أدواتهـا. بـدا الأمـر وكأنّ الصحافـة دخلـت في طـور جديـد: لـم يعـد كافيًـا للصحفـيّ امـتلاك الشـغف والفضـول والمهـارة في الكتابـة، بـل صـار عليـه أمـام التفجّـر الكبيـر في البيانـات المتوفـرة حولـه أن ينخـرط في مهـام تقنيـة أكثـر تعقيـدًا. (6) ولمسـاعدة الصحفييـن في معرفـة هـذه المتطلبـات الجديـدة للصنعـة وتعلمهـا، وجـد مايـر فرصـةً لإتمـام كتابـه وإقنـاع الناشـر بفكرتـه، حتـى صـار هـذا الكتـاب خلال وقـت قصيـر بحسـب نيويـورك تايمـز «أحـد أهـم الكتـب التـي كتبـت عـن الصحافـة على الإطلاق»، كمـا صـار مؤلفـه مرشـحًا لرئاسـة عمـادة كليـة الصحافة في جامعـة كولمبيـا، وكان حينهـا لـم يتجـاوز 56 عامًـا مـن عمـره.(7)

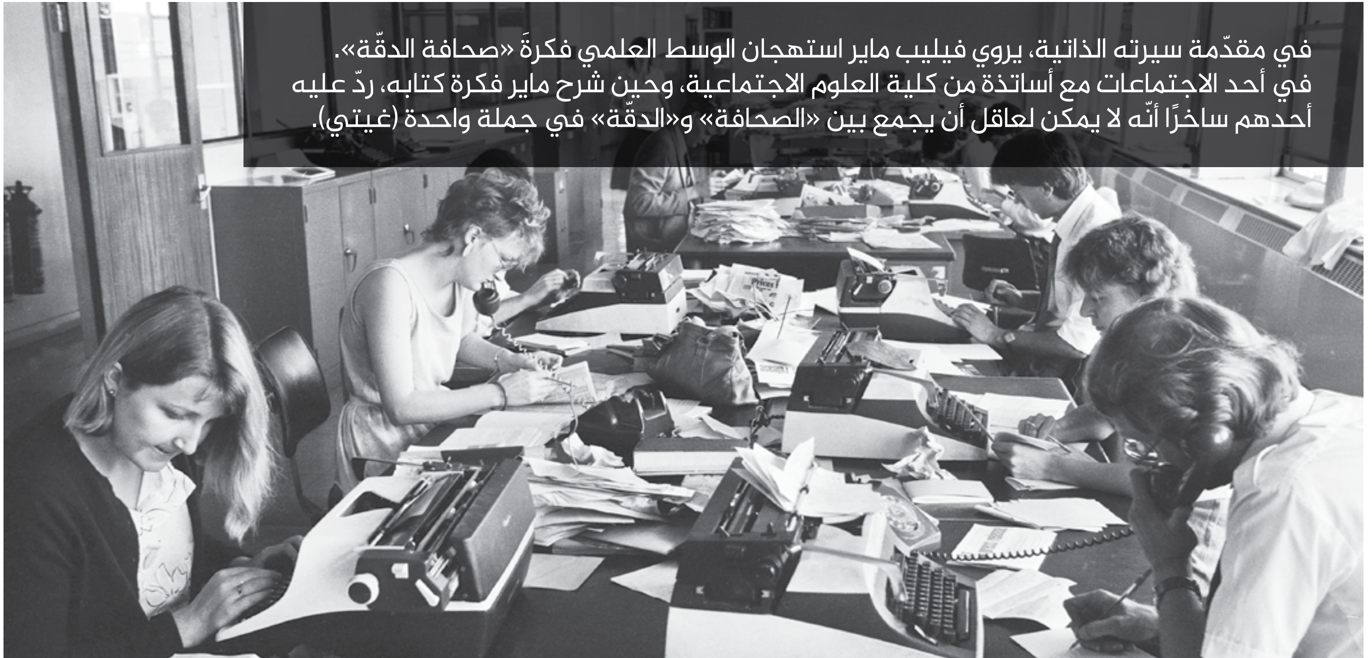
لقـد شـكّلت انتفاضـة ديترويـت وحركـة الحقـوق المدنيّـة والحـراكات المناهضـة للعنصريـة وللتـدخلات العسـكرية الأمريكيـة خلال الحـرب

البـاردة سـياقًا هامًـا لتطـوّر عمـل مايـر وزملائـه وتعزيـز أهمّيـة الفكـرة التـي قدمهـا فـي الكتـاب بشـأن ضـرورة عنايـة غـرف الأخبـار بتكويـن أساسـي للصحفييـن والمراسـلين فـي مجـال العلـوم الاجتماعيـة وأدواتهـا البحثيـة؛ فقـد حـدد مايـر بعـض جوانـب الضعـف والخطـورة فـي العمـل الصحفـي غيـر المعتمـد علـى البيانـات وجمعهـا وتحليلهـا وفـق منهـج علمـي؛ إذ يكـون التأثّـر بالانطباعـات العامـة والتحيّـزات التأكيديـة سـببًا فـي إطلاق التعميمـات وعـدم منـح مسـاحة لنطـاق أوسـع مـن الأصـوات بعيـدًا عـن التشـنّج والاسـتقطاب. وفي هـذا السـياق نفسـه، يعـدّ العمل الصحفـي الـذي قدّمـه الصحفـي الأمريكـي لويـس هاريـس فـي التقاريـر التـي أعدهـا لصالـح مجلـة «نيوزويك» عـن الأمريكييـن السـود فـي سـياقات محليّـة، واعتمـاد أدوات اسـتبيانية مسـتخدمة فـي البحـوث الاجتماعيّـة لفهـم وجهـات نظرهـم بعيـدًا عـن الاختـزال عـملا رائـدا. (8)
ثمّـة حـدث بـارز آخـر قفـزت معه

> اعتمادا على هذا الاختبار البسيط، توصّل الطلبة إلى نتيجة ذات دلالة من خلال حساب مدة صبر السائقين في تلك المدينة الجامعية في تشابيل هيل، ليتبين لهم عند مقارنة النتائج أنها تبلغ ضعف معدل المدة التي جرى تسجيلها في المدن الأخرى.

أسـهم كتـاب «صحافـة الدقّـة» وعـزز الصلـة والتقاطـع بيـن العمـل الصحفي والعلـوم الاجتماعيـة، وهـو فضيحـة «ووترغيـت» (9) في مطلـع سـبعينات القـرن العشـرين، التـي كشـفت عـن الإمكانـات التـي تحملهـا الصحافـة الاسـتقصائية التـي تحمـي نفسـها بالبيانـات والطرق العلميـة في جمعها ومقارنتهـا وتحليلهـا، وبمـا يعـزّز مـن مصداقيـة العمـل الصحفـي وجدّتـه وتأثيـره. وفي هـذا السـياق نجـد أن الصحفـي الشـهير بـوب وودوارد الـذي سـاهم في ذلـك التحقيـق مـع كارل بيرنسـتين، يشـير بوضـوح إلـى أن المقيـاس الـذي يلـزم اعتمـاده لتقييـم الصحافـة هـو «جـودة» المعلومـات التـي تقدمهـا، وليـس «المبالغـات الدراميـة» و«المفرقعـات» الشـكلية التـي ترتبـط بهـا. (10)

إلا أن الكتـاب في تأكيـده على أهميـة هـذا المنهـج الصحفـي وتطويـر أدواته بالانفتـاح على التخصصـات الأخـرى، لا يجنـح إلـى التعريـض بأشـكال صحفيـة أخـرى تقليديـة سـائدة؛ ذلـك أن فيليـب مايـر لا يختـزل الصحافـة في ثنائيـة تبسـيطيّة تجعـل مـا يقابـل صحافـة «الدقّـة» هـو صحافـة «اللادقّـة»؛ فالكتـاب يمثّـل دعـوة تشـجع الصحافـة على التقاطـع مـع الحقـول الأخـرى وأدواتهـا؛ لأن ذلـك سـيعزز مصداقيـة الصحفـي على المسـتويين النظـري والعملـي معًـا. والصحفـيّ مـن خلالـه حرصـه على الوصول إلـى البيانـات الجيـدة والعناية


في مقدّمة سيرته الذاتية، يروي فيليب ماير استهجان الوسط العلمي فكرةَ «صحافة الدقّة». في أحد الاجتماعات مع أساتذة من كلية العلوم الاجتماعية، وحين شرح ماير فكرة كتابه، ردّ عليه أحدهم ساخرًا أنّه لا يمكن لعاقل أن يجمع بين «الصحافة» و«الدقّة» في جملة واحدة (غيتي).

بمعالجتها وفق أطر نظرية معتبرة في العلوم الاجتماعية والسلوكية، سيكون أكثر تأثيرًا وإقناعًا، وأقدر على تحييد أكبر نسبة ممكنة من أشكال التحيّز التي قد تتسلل إلى العمل الصحفي التقليدي؛ لكنّه مع ذلك لا يدعو إلى قطيعة مع تقليد المقابلة الصحفيّة والأسئلة المباشرة والحديث مع المصادر في الميدان كطريقة للحصول على المعلومات وتوسيع وجهات النظر حول مسألة معينة منظور فيها صحفيًا.

في مقدّمة سيرته الذاتية، يروي فيليب ماير استهجان الوسط العلمي فكرةَ «صحافة الدقّة». في أحد الاجتماعات مع أساتذة من كلية العلوم الاجتماعية، وحين شرح ماير فكرة كتابه، ردّ عليه أحدهم ساخرًا أنّه لا يمكن لعاقل أن يجمع بين «الصحافة» و«الدقّة» في جملة واحدة. أخبروه أنّ أكثر ما يمكن للصحفي فعله هو سؤال العلماء عن نتائج أبحاثهم، وليس اقتراض أدواتهم ومناهجهم وتطبيقها في عمله. (11) أمّا اليوم، وبعد انقضاء نصف قرن تقريبًا على صدور الكتاب، فإن «صحافة الدقّة» ما يزال أحد المراجع الأساسية في هذا المجال، وربما أول مفتاح يبحث عنه الصحفي المبتدئ لمعرفةٍ نقاط الاتصال بين الصحافة والعلوم الاجتماعية وأدواتها، (12) وهو ما يدل عليه وجود الكتاب الثابت في المناهج التدريسية للصحافة في العديد من الجامعات والمعاهد عبر العقود الماضية؛ لتدريس نمط جاد من العمل الصحفي المتخصص الذي ما يزال يتطور حتى اليوم. (13)

المراجع

(1) Meyer, Philip. Precision Journalism: A Reporter›s Introduction to Social Science Methods. 4th ed. Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2002.
(2) Sterling, Christopher H., ed. Encyclopedia of Journalism. Thousand Oaks, CA: SAGE Publications, 2009.
(3) Beuttler, Bill. “Whatever Happened to the New Journalism?” Master’s project, Columbia University Graduate School of Journalism, 1984. https://www.billbeuttler.com/whatever_happened_to_the_new_journalism__11929.htm.
(4) Meyer, Philip. The New Precision Journalism. Carolina Data Desk. Accessed May 10, 2025. https://carolinadatadesk.github.io/pmeyer/book/Chapter1.htm.
(5) Risen, Clay. “Philip Meyer, Reporter Who Pioneered Data-Driven Journalism, Dies at 93.” The New York Times, November 8, 2023. https://www.nytimes.com/2023/11/08/business/media/philip-meyer-dead.html.
(6) Meyer, Philip. Precision Journalism: A Reporter›s Introduction to Social Science Methods. 4th ed. Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2002.
(7) https://www.nytimes.com/2023/11/08/business/media/philip-meyer-dead.html.
(8) Rodgers, Harrell R., and Charles S. Bullock. “Political and Racial Attitudes: Black Versus White.” Journal of Black Studies 4, no. 4 (1974): [page].
(9) فضيحة ووترغيت هي قضية تجسس سياسي تورّطت فيها إدارة الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون، وانتهت باستقالته عام 1974، بعدما كشفتها الصحافة الاستقصائية وأدت إلى محاكمات سياسية وجنائية
(9) Taliaferro, Allison. “Journalism Felt like a Second Nature.” Hays Free Press, May 3, 2023. https://www.haysfreepress.com/2023/05/03/journalism-felt-like-second-nature/.
(10) Meyer, Philip. Paper Route: Finding My Way to Precision Journalism. Columbia, MO: University of Missouri Press, 2018.
(11) Weaver, David H., and Maxwell E. McCombs. “Journalism and Social Science: A New Relationship?” The Public Opinion Quarterly 44, no. 4 (1980): 477–494.
(12) Casey, R. D. “Journalism, Technical Training and the Social Sciences.” Journalism Quarterly 9, no. 1 (1932): 31–45.

الفضاء الأنثربولوجي والاستشراق الإعلامي

تيسير أبو عودة

ينظر إلى الاستشراق الإعلامي كامتداد للرؤية الأنثروبولوجية الغربية للجنوب العالمي كرسته العولمة والثورة الرقمية والدراسات الثقافية التي فرضت شروطا سردية وأيديولوجية على عالم الصحافة وتقاطعاته مع الأنثروبولوجيا والمنهج الإثنوغرافي في سياق علاقة الغرب بالشرق. ما جذور هذه التصورات والتمثيلات والاستشراقية؟ وكيف يمكن الدمج بين المنهج الإثنوغرافي والأنثروبولوجيا الإعلامية لمواجهتها؟

لقد شكلت الحروب الثقافية في أمريكا وبريطانيا وأوروبا خصوصا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وفي ضوء نشوء الدول القومية الحديثة - وبعد عقود من نشوء حركات التحرر ما بعد الكولونيالي (الاستعماري) في العالم الثالث، ونهاية الحرب الباردة - انعطافة مهمة في تاريخ وصيرورة أنثروبولوجيا الإعلام والإعلام الجماهيري بصورة عامة في بدايات الثمانينات، ومطلع التسعينات من القرن العشرين وصولا إلى الثورة المعلوماتية في القرن الواحد والعشرين وانتهاء بحقبة ما بعد أحداث سبتمبر/ أيلول وحتى النزعة الترامبية الشمولية في يومنا الراهن.

لقد تجلّت هذه التحولات في خضم صناعة التصورات الاستشراقية حول صورة الآخر واللاأوروبي، والعربي المسلم على وجه الخصوص. لقد ظلت أنثروبولوجيا الإعلام والثورة المعلوماتية في الميدان الأكثر فاعلية وحيوية فيما يخص مركزية العولمة الأمريكية الجديدة في مناهضتها لمعسكر الشيوعية في البداية ثم الإسلام لاحقا، ومحاولتها فرض قواعد اللعبة الجديدة تجاه ثورة المعلومات والإنترنت، والعنف البصري، والإعلام، وتصنيع الهويات الجديدة، والإعلام الديماغوجي، والرأسمالية المتأخرة، والشوفينية، وخطاب رهاب الأجانب والإرهاب، ورهاب الهجرة لغير الأوروبيين باتجاه أمريكا وأوروبا، وتغوّل الإمبراطوريات الإعلامية الكبرى. مما جعل علاقة الإعلام والأنثروبولوجيا علاقة فردية وجماعية وسوسيولوجية وسيكولوجية معقدة، لا يمكن تهميشها، في ضوء ما يسميه الفيلسوف تشارلز تايلور مصادر الذات والوعي على مستوى تشكّل الهويات والذات فرديا وجماعيا.

لقد فرضت العولمة والثورة الرقمية والمركزية الغربية والدراسات البين نصية Interdisciplinary Studies والنظرية الأدبية، والدراسات الثقافية، والنقد الأدبي شروطا سردية وأيديولوجية على عالم الصحافة وتقاطعاته مع الأنثروبولوجيا والمنهج الإثنوغرافي في سياق علاقة الغرب بالشرق، والمجتمعات التأويلية الحديثة. لا بد لنا أن ندرك أن مثل هذه المجتمعات التأويلية كما يسميها علماء الدراسات الثقافية تنظر للخبر الإعلامي بوصفه جزءا لا يتجزأ من السياق الثقافي والإثنوغرافي لهذا المجتمع، ولا يمكن فهم هذا الخبر بعيدا عن سياقه الأنثروبولوجي والمحلي والعالمي والاقتصادي والاجتماعي والفردي والجمعي. ومن منظور الدراسات الثقافية، فإن تأويل الخبر وتفسيره هو جزء عضوي من عالم الصحافة وانتشار الخبر وإنتاجه وصناعته عبر الصحف والعالم الرقمي، وكيفية تلقي الجمهور لهذا الخبر وتشكلات الوعي الجماهيري، وصناعة الكلمات وتشكيل الخطاب. (1)

لا شك أن التمثيلات الاستشراقية والأنثروبولوجية لشمال أفريقيا والمغرب الكبير تُسقط إعلاميا في كثير من الأحيان على الشرق الأوسط دون الأخذ بعين الاعتبار اتساع نطاق الهويات والطقوس والعادات واللهجات والمكون الاجتماعي والأنثروبولوجي والسياسي والجغرافي.

الاستشراق الأنثروبولوجي في الإعلام الرقمي

تُبيّن الدراسات الحديثة أن عالم الإنترنت لم يعد آمنا قط، بل أصبح منصة عالمية يتسلّح بها الكثير من أتباع أقصى اليمين في بريطانيا وأمريكا وكندا وأوروبا لمهاجمة المجتمعات الإسلامية، وبث خطاب الكراهية، ومن المؤسسات الرقمية الكارهة للمسلمين: The Anti-Defamation League رابطة مكافحة التشهير، و رابطة الدفاع عن اللغة الإنجليزية The English Defense League، وروابط بريطانيا أولا، ومبادرة الدفاع عن الحرية الأمريكية AFDI، ولا ننسَى مجموعات النازيين الجدد المعادين للمسلمين والعرب على شبكات التواصل الاجتماعي. (2)

لقد ظل سؤال المفكر إدوارد سعيد حول هيمنة الإعلام الغربي على تصورات وتغطية الإسلام بعد الثورة الإيرانية نصا تأسيسيا لكثير من دارسي الأنثروبولوجيا الإعلامية في سياق الاستشراق الإعلامي والإسلاموفوبيا. (3) ظل هذا الخطاب الأنثروبولوجي الإعلامي مركزيا بوصفه خبرا ثابتا ونمطيا يختزل أكثر من مليار مسلم باعتبارهم جوهرا هوياتيا يرمز للتخلف، والرجعية والعنف، وكراهية اليهود والمسيحيين والغرب، والخطر الذي يهدد الديمقراطية الغربية والتقدم، وكل قيم الليبرالية. لا ننسى أيضا أن ما فعله الإعلام الغربي في أفلام هوليوود ساهم أيضا في اختزال وتسطيح صورة العربي المسلم بوصفه الهمجي والبربري والشهواني والمتخلف، والعاطفي واللاعقلاني والعنّين ثقافيا وحضاريا والمصاب بعصاب العنف والإرهاب والتطرّف ومرض النكوص. (4) يكفي أن نشاهد فلم «الريح والأسد» (1975)، وفلم «تحت الحصار» (1986)، و«مطلوب حيا أو ميتا» (1987)، و«القنّاص الأمريكي» (2014)، ليبتين لنا حكم تغطية الإعلام الاستشراقية على كل ما له علاقة بالإسلام وصورة العرب المسلمين في الوعي الإعلامي الغربي. يبين لنا المفكر جاك

شاهين في كتابه «شيطنة العرب في السينما الأمريكية» كيف أن أكثر من 900 فيلم في هوليوود تعكس صورة شيطانية للعرب والمسلمين، وكأنهم جميعا مدججون بغريزة الموت والعنف والشهوانية المقززة وانعدام الكفاءة والثراء الفاحش والتخلّف والرجعية وكراهية التقدم والحضارة الغربية. (5) حتى إن كبار الأنثروبولوجيين أمثال كليفورد كيتز وإرنست جيلنر وبراين تيرنر قد أصّلوا صورة استشراقية للمغرب الإسلامي الاستشراقي: الإسلام الهرمي والمركزي الذي تشكل في المنظومة المدينية والحضرية، والإسلام البدوي خارج حواضر المدينة، والذي يضم القبائل البدوية، والتي تفرض عليها المدن هيمنة سياسية وسوسيولوجية من خلال القمع والاحتواء والتدجين والإلغاء، وربما نلمح هنا إحالة مبطنة ولكنّها مضللة لطروحات ابن خلدون حول البداوة والحضارة في بناء المجتمعات العربية، وعلاقتها بالعصبية والشوكة والحواضر ومكون البداوة.

> **ورغم نظرة الأنثروبولوجيا المتعالية في باكورة القرن العشرين تجاه الإعلام بوصفه حقلا يتكئ كثيرا على الارتجال، وسرعة كتابة التقارير، والتحليل المتسرّع أحيانا، والمنهجية الوصفية الجامدة أحيانا، بدأ رواد الأنثروبولوجيا يرون أهمية المزاوجة بين المنهج الإثنوغرافي السردي والأنثروبولوجيا الإعلامية.**

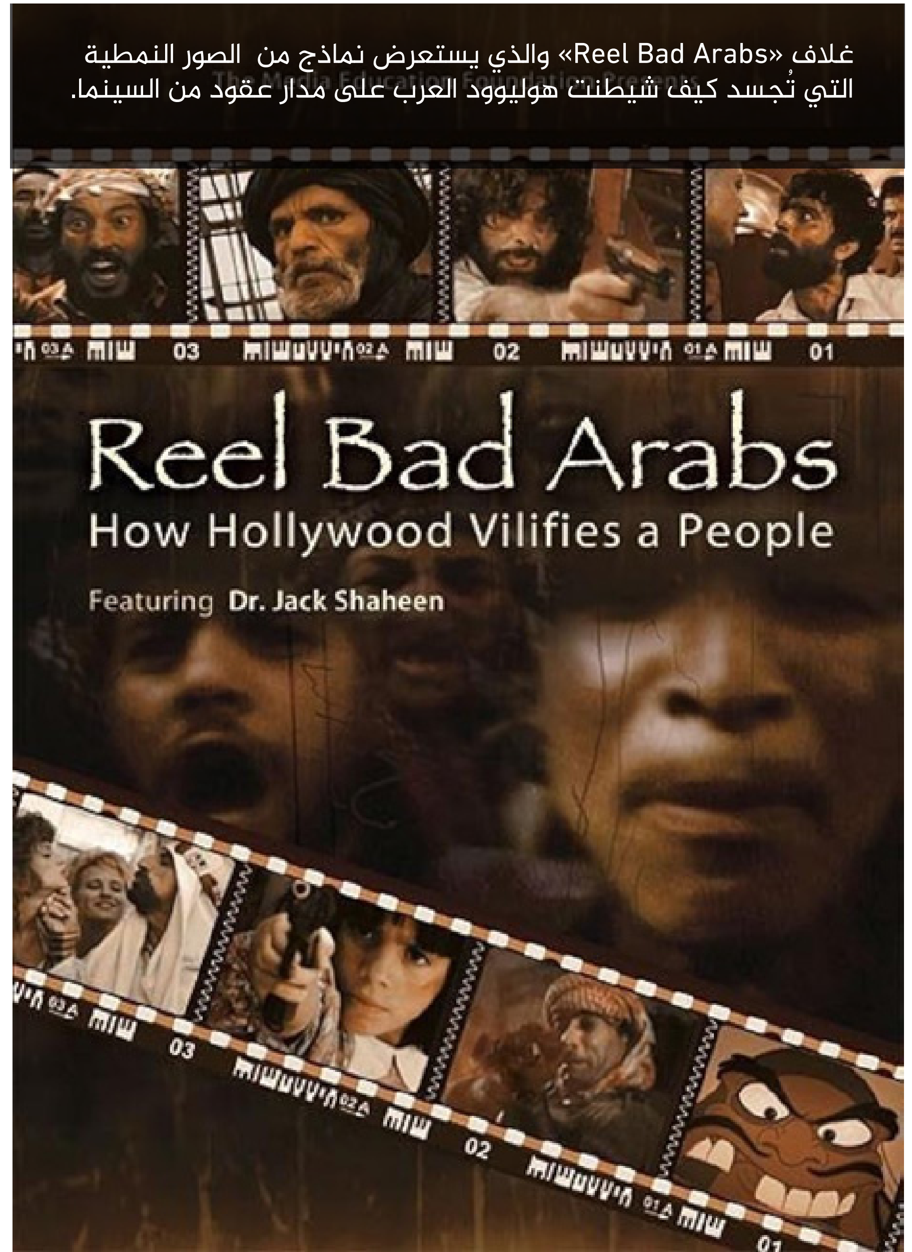
لا شك أن مثل هذه التمثيلات الاستشراقية والأنثروبولوجية لشمال أفريقيا والمغرب الكبير تُسقط إعلاميا في كثير من الأحيان على الشرق الأوسط دون الأخذ بعين الاعتبار اتساع نطاق الهويات والطقوس والعادات واللهجات والمكون الاجتماعي والأنثروبولوجي والسياسي والجغرافي؛ فتصبح صورة الإسلام بأكملها رهينة ثنائيات استشراقية نمطية، ويتم استبعاد المكون الأنثروبولوجي المتعدد والثري والمتنوّع في الوطن العربي، مثل البدون (الذين لا يحملون الجنسية) في الكويت، وبدو بئر السبع في جنوب فلسطين، وأهل عجلون في الأردن، وطقوس أهل قرية بصيرة في الطفيلة فيما يخص المآتم والأفراح ومركزية العائلة والمصاهرة، وبدو الأردن في البادية، وأهل السويداء في الشام، وأهل الصعيد في مصر، ومسيحيي سوريا ولبنان، وشعائر وطقوس سكان سيناء في مصر، وأهل الجنوب في تونس والمغرب، والطوارق في ليبيا، والغجر في الوطن العربي، وحتى الكثير من التصورات الجندرية للمرأة المصرية واختزال الإعلام لدورها في ميدان التحرير في سياق الربيع العربي. لعل المطلع على فيلم «ذيب» الأردني (6) يلمح شكلا أنثروبولوجيا مغايرا لصورة بدو الأردن عن الصورة المشوهة لقاطني الأردن في القرن التاسع عشر، التي قدمها ألكسندر كينليك في كتابه «الشرق» (7). كما قدَّمت الأنثروبولوجية الفلسطينية ليلى أبو لغد تصورات أنثروبولوجية مناهضة للتصورات الإعلامية الاستشراقية عن المرأة المصرية على مستوى النموذج الذاتي والجندري والاجتماعي والسيكولوجي. (8) تقدم لنا أبو لغد الفتاة المصرية أميرة بوصفها رمزا للمرأة الريفية المحاربة، التي تحاصرها ظروف المعيشة الصعبة والفقر والعمل الشاق لساعات طويلة، ولكنها تبين لنا علاقة الميلودراما التلفزيونية والمكون الديني في صقل شخصية أميرة، ويتبين لنا وجود علاقة وطيدة بين تكوين أميرة الأخلاقي والوجداني وبين المسلسلات التلفزيونية والراديو وحضورها للدروس الدينية في المساجد المجاورة في القاهرة.

الثقافة والحضارة والأنثروبولوجيا الإعلامية

ورغم نظرة الأنثروبولوجيا المتعالية في باكورة القرن العشرين تجاه الإعلام بوصفه حقلا يتكئ كثيرا على الارتجال، وسرعة كتابة التقارير، والتحليل المتسرّع أحيانا، والمنهجية الوصفية الجامدة أحيانا، بدأ رواد الأنثروبولوجيا يرون أهمية المزاوجة بين المنهج الإثنوغرافي السردي والأنثروبولوجيا الإعلامية، خصوصا في أعقاب طروحات ريموند ويليامز، وستوارت هول، ونظرية الفضاء العام الإعلامي لدى هابرماس، والمجتمعات المتخيلة في طروحات بنيديكت أندرسون.

ظلت الثقافة والحضارة مفهومان مركزيان في متن أنثروبولوجيا الإعلام الغربي، وهنا أقصد الثقافة بوصفها نقيض الطبيعة والمجتمعات البدائية، فالثقافة هنا هي زبدة الحداثة بكل ما تحمل من مكونات الرفاه الاجتماعي، وإنجاز أعلى مستويات العيش في كنف الدولة القومية الجديدة، وتحقيق التعليم لكل طبقات المجتمع، وترجمة العقد الاجتماعي في خضم علاقة الدولة بالمواطنين، ولكنها في النهاية ثقافة انتقائية ومركزية تستند إلى نزعة التفوق لدى الرجل الأبيض، والهيمنة الاقتصادية باسم السوق الحرة، والرأسمالية المتوحشة، واحتكار السلع، وتسليع القيم باسم صيرورة الاستهلاك، والاتكاء على خطاب

يوتوبيا الحضارة الغربية بوصفها مهد الديمقراطية، وموطن حقوق الإنسان، ومشرّعة سياسات التدخل العالمية باسم ما يُطلق عليه صامويل هنتغتنون «صراع الحضارات». (9) ولكن ما علاقة كل هذا بأنثروبولوجيا الإعلام في خضم صيرورة تمثيل الغرب للعرب والمسلمين، بل وتمثيل العرب لأنفسهم في نفس السياق؟



غلاف «Reel Bad Arabs» والذي يستعرض نماذج من الصور النمطية التي تُجسد كيف شيطنت هوليوود العرب على مدار عقود من السينما.

تكمن إشكالية الثقافة بوصفها مفهوما غربيا نشأ في ظلال عصور الاستعمار والإمبريالية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر التي تصنعها وتشكلها وتشرعنها مؤسسات الدولة القومية الحديثة من خلال ديناميكات السلطة والديمقراطية والليبرالية والعلمانية ودولة الرفاه والسيادة وسلطة الإعلام والطبقة الاجتماعية والفضاء الخاص والعام للدين والتدين. (10) ناهيك عن انتشار ثورة الإعلام المعلوماتي والتي صارت رافعة أساسية للدولة القومية الحديثة خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية لتشكيل الوعي الجماهيري والهيمنة الثقافية وأدلجة الخطاب السياسي وصناعة الإذعان وصناعة الإنسان الجديد الذي يأتمر بالقيم الليبرالية الجديدة بما فيها: النمط الاستهلاكي المتطرّف وخصخصة مؤسسات الدولة وتسليع كل قيمة باسم الربح والخسارة والنجاح والفشل في سوق مفتوحة متوحشة، ورقمنة الإعلام والتعليم وجميع مؤسسات الدولة والقطاع الخاص، وجعل الإعلام بكل أشكاله المتلفزة والرقمية والمسموعة والإنترنت وأدوات الذكاء الصناعي ذريعة «ميكافيلية» لتبرير هيمنة الوضع الراهن، وسحق الطبقة العاملة، وتفكيك الرفاه الاجتماعي، وتحويل فكرة الدولة الحديثة الليبرالية إلى دولة تكتفي بوظيفة الحارس الليلي. (11)

وفي خضم الفهم الأنثروبولوجي والسياسي والسوسيولوجي للثقافة، هل يمكن اعتبار دور الإعلام في الشمال العالمي والجنوب العالمي مصدرا للتثقيف والوعي الفردي والجماعي والتربوي؟ أم هو ماكينة تقنية - بتعبير جورج أورويل - للسيطرة على وعي الجماهير وأدلجة فكر الجماهير التي تتلقى الخبر وتعيد إنتاجه وتحويله إلى مجتمع التلقي بما يتناسب مع جهاز الدولة الأيديولوجي كما اصطلح عليه ألتوسر؟ هل تغطية الإسلام - بتعبير إدوارد سعيد - هي شكل من أشكال صناعة الإعلام الأنثروبولوجي والإثنوغرافي حتى بدت لنا الثورة الإسلامية في زمن الخميني ثورة مضادة للحداثة الغربية من المنظور الأوروبي المركزي؟ (12) طلال وبدت لبعض الجماهير محاصرة السفارة الأمريكية من قبل بعض الجماهير الغربية رمزا أنثربولوجيا لمناهضة

سياسات التدخل الأمريكية في شؤون الشرق الأوسط؟ كيف تمت تغطية المظاهرات المضادة لحرب فيتنام في ستينات القرن الماضي مثلا؟ يمكن لنا معاينة الإعلام الغربي ومراجعة تغطيته للربيع العربي بسهولة، وذلك من خلال تبنيه مقولات رسمية كثيرة تعبر عن الدعاية الأمريكية الرسمية، بل وتطلعنا على ما كان يحدث في المطبخ السياسي الأمريكي والخريطة الجديدة للوطن العربي. طبعا هذا لا يتناقض مع وجود تطلعات أصيلة للشارع العربي في معركته الوجودية مع الخبز والكرامة والمساواة والعولمة وسياسات التدخل والإفقار، وما يسميه ديفيد هارفي «تناقضات الرأسمالية» التدميرية،(13) والاحتكار الاقتصادي لموارد البلدان العربية ناهيك عن سقوط التعليم العالمي في فخ الليبرالية الجديدة.

سرديات إعلامية مضادة للثقافة الغربية المركزية

إن المتابع لسرديات الصحفي روبرت فيسك في تغطيته للحرب في أفغانستان والعراق والحرب العراقية الإيرانية والحرب الأهلية في لبنان والثورة في سوريا وغيرها من الأحداث، يدرك تماما أن حربه ضد ما يسميه «صحفيي الفنادق» كانت شكلا أنثربولوجيا وإثنوغرافيا صارخا في ميدان الإعلام المعاصر. لنا أن نتخيل قدرة فيسك الإثنوغرافية المذهلة في سرد تفاصيل النساء العراقيات وشعوب أفغانستان وإيران ولبنان وأطفال فلسطين بعيدا عن الإملاءات الاستشراقية المبسطة. الأمر ذاته ينسحب على الصحفي كريس هيدجيس وتغطيته الإعلامية الأنثروبولوجية لكثير من أطفال ونساء فلسطين، وتغطيته لتفاصيل الإبادة الجماعية الحاصلة اليوم في غزة، وبلاغته المدهشة في تصوير شعائر الفلسطينيين، وعاداتهم وطموحاتهم ومشاعرهم في خان يونس والشجاعية ورفح. وفي السياق نفسه، يطل علينا الصحفي جو ساكو في إهاب أنثروبولوجي وإثنوغرافي رفيع وهو يسرد هوامش غزة من خلال رسوم كرتونية عبقرية مشفوعة بسرد أدبي متخفف من النبرة الصحفية المحايدة. يرسم جو ساكو صورة واقعية وأنثربولوجية مهولة عن تفاصيل غزة والمكون الاجتماعي والسياسي والجغرافي والوجداني في سياق الاحتلال الإسرائيلي، ويتبين لنا ذلك في قدرة ساكو على الدمج بين البصري والمحكي، وبين المحكي والسردي. وتتجلى هذه التقنيات الصحفية والملكة الأنثروبولوجية في كتاب ساكو «فلسطين» الذي يتكئ على أسلوب الروبورتاج، والذي يصوره إدوارد سعيد في مقدمة الكتاب ببراعة:

> "لقد شكلت الحروب الثقافية في أمريكا وبريطانيا وأوروبا خصوصا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، انعطافة مهمة في تاريخ وصيرورة أنثروبولوجيا الإعلام والإعلام الجماهيري بصورة عامة في بدايات الثمانينات، ومطلع التسعينات من القرن العشرين وصولا إلى الثورة المعلوماتية في القرن الواحد والعشرين وانتهاء بحقبة ما بعد أحداث سبتمبر/ أيلول وحتى النزعة الترامبية الشمولية في يومنا الراهن."

تبدو لنا صورة المدينة في غزة مشوهة على يد آلة الاستعمار الاستيطاني، وتبدو طقوس أهل غزة تشبه السرد المتقطع، تحدق في جملة المبتدأ وتفتش عن الخبر، فلا تدركه إلا في صورة طفل معتقل، أو امرأة تنتظر زوجها المقتول على يد الجنود الإسرائيليين، ثم ندرك لاحقا أن العزاء والرثاء من المحرمات في مدينة غزة. لا يكتفي قلم ساكو برسم التراجيديا الفلسطينية، وتفاصيل سجون الاحتلال، وطقوس الزواج، ومفارقة العيش في أكبر سجن في العالم، بل نحدق في روح المدينة المرهقة، وهي تقاوم كل تفاصيل حظر التجول، والأبارتايد، والحصار الاقتصادي والوجودي والسردي ويكأن الأنثربولوجيا الإعلامية في ملة واعتقاد جو ساكو هي الدال والمدلول، وهي المسرح الميلودرامي الذي يلتحم فيه السياسي بالجمالي والفردي بالجمعي والوجداني بالجغرافي. هنا تصبح الصحافة منصة لإشهار الحق في وجه التوحش الاستعماري. (14)

ولو أردنا تبسيط الثقافة في المخيال الجمعي العالمي خصوصا من الزاوية الاستشراقية والأنثروبولوجية لقلنا إن شخصية بروسبيرو حاكم ميلان في مسرحية العاصفة تشكل مصدرا خصبا للثقافة الغربية والإعلام الغربي؛ فهي شخصية مثقفة ومتعلمة ومحتشدة بمصادر النهضة الأوروبية والنزعة المسيحية الإنجليكانية والقوة والقلق والهيمنة والنزعة الاستعمارية والنظرة الدونية للثقافات الأخرى، وكاليبان المسخ هو رمز الطبيعة البكر أو الشعوب الأخرى الهامشية التي تشكل نقيض الحضارة؛ إذ يرى الرجل الأبيض في نفسه مهمة حضارية كونية وهي وظيفة السيد تجاه عبيده التابعين، وهذه الوظيفة إعلامية وتعليمية وأنثروبولوجية.



من منظور الدراسات الثقافية: تأويل الخبر وتفسيره هو جزء عضوي من عالم الصحافة وانتشار الخبر وإنتاجه وصناعته عبر الصحف والعالم الرقمي، وكيفية تلقي الجمهور لهذا الخبر وتشكلات الوعي الجماهيري، وصناعة الكلمات وتشكيل الخطاب (شترستوك).

المراجع

(1) Unberg, Natalie M., and Elyane Zorn. Digital Ethnography: Anthropology, Narrative, and New Media. Austin: University of Texas Press, 2013.

(2) Awan, Imran. "Islamophobia on Social Media: A Qualitative Analysis of Facebook's Walls of Hate." International Journal of Cyber Criminology 10, no. 1 (2016).

(3) سعيد، إدوارد. ترجمة محمد عناني. تغطية الإسلام. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2005.

(4) Said, Edward. Orientalism. London: Penguin Classics, 2003.

(5) شاهين، جاك. ترجمة خيرية البشلاوي. الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2013.

(5) Al-Mousawi, Nahrain. "Could 2016 Mark a Breakthrough for Arab Films at the Oscars?" Middle East Eye. 2016. https://www.imdb.com/title/tt3170902/.

(6) Alexander, Kinglake. Eothen. London: J.M. Dent and Sons, 1908, 106-107.

(7) Ginsburg, Faye D., Lila Abu-Lughod, and Brian Larkin, eds. Media Worlds: Anthropology on New Terrain. Berkeley: University of California Press, 2002.

(8) Mazlish, Bruce. Civilization and Its Contents. Stanford: Stanford University Press, 2004.

(9) كوبر، آدم. ترجمة تراجي فتحي. الثقافة: التفسير الأنثروبولوجي. الكويت: عالم المعرفة، 2008.

(9) Harvey, David. Seventeen Contradictions and the End of Capitalism Oxford: Oxford University Press, 2014, 89.

(10) Asad, Talal. "The Idea of an Anthropology of Islam." Cultural Anthropology 17, no. 2 (2009): 1–30.

(11) Lincoln: University of Nebraska Press.

(12) David. Seventeen Contradictions and the End of Capitalism.

(13) Sacco, Joe. Palestine. London: Vintage Publishing, 2003.

(14) Sacco, Palestine.

المجتمع العربي والصحافة الاستقصائية.. جدلية الثقافة والسلطة والمهنة

مصعب شوابكة

تشكل هذه القراءة في أشكال الضغوط الاجتماعية وتأثيرها على ممارسة الصحافة بشكل عام والعمل الاستقصائي بشكل خاص، امتدادا لمقال سابق للزميل مصعب شوابكة، المنتج الاستقصائي بقناة الجزيرة، حول أسباب تعثر الصحافة الاستقصائية في العالم العربي. البنى الاجتماعية المحافظة، سلطة الجمهور، الدين والمعتقدات، النساء والأطفال، القبيلة والعشيرة والرقابة الذاتية تحولت إلى قيود شديدة تقيد حرية الصحفيين.

عندمـا تلقـت صحيفـة بوسـطن غلـوب الأمريكيـة أول بلاغ عـن تعرض طفـل لانتهـاك جنسـي داخـل إحـدى الكنائـس الكاثوليكيـة تجاهلـت الصحيفـة القصـة في البدايـة، رغـم تكـرار البلاغـات مـن ضحايا آخرين. كان الدافـع وراء التجاهـل احتـرام مكانـة الكنيسـة ودورهـا في المجتمـع، وربمـا خشـية مـن الاصطـدام مـع مجتمـع محافـظ لا يـزال يتمتـع فيـه رجـال الديـن بنفـوذ واسـع، مـع أنهـم في بلـد يوصـف بالليبرالـي. وعلى الرغـم مـن محـاولات رؤسـاء التحرير طمـس التحقيقـات التـي كشـفها فريـق الصحافـة الاسـتقصائية (سـبوت لايـت) (1) إلا أن الفضيحـة انفجـرت عـام 2003 لتكشـف عـن دور المجتمـع -حتـى في أكثـر البيئـات انفتاحًـا- في فـرض سـلطته على الصحافـة والتأثيـر على أدائهـا وممارسـاتها، ودور الصحافـة الاسـتقصائية في التأثيـر في المجتمـع واتجاهاتـه، وهـو مـا يمنحنـا فرصـة للمقارنـة مـع مـا يحـدث في مجتمعاتنا العربيـة حيـث تبـدو هـذه الضغـوط على الصحافـة وبالأخـص الاسـتقصائية منهـا أكثـر وضوحًـا وأثقـل وطـأة.

في المنطقـة العربيـة تتسـم المجتمعـات بتنوعهـا العرقـي والدينـي والطبقـي والأيديولوجـي، يضـاف إليهـا نفـوذ القبيلـة الممتـدة عبـر الحـدود، والعشـيرة والأسـرة وسـلطة العـادات والتقاليـد، وهنـا تتعاظـم سـلطة المجتمـع على العمـل الصحفـي، وتـزداد معهـا حساسـية تنـاول قضايـاه، وتتشـابك كلهـا في سـياق مـع العمـل الاسـتقصائي تؤثـر فيـه ويتأثـر بهـا.

إن الصحفـي الاسـتقصائي العربـي - في نهايـة المطـاف - جـزء مـن هـذا النسـيج الاجتماعـي الكثيـف والمعقّد، يحمـل هويتـه الثقافيـة والاجتماعيـة التـي تتسـرب إلـى ممارسـاته المهنية بوعـي أو دون وعـي؛ لأن الصحافـة الاسـتقصائية ليسـت مجـرد تطبيـق جامـد لمعاييـر مهنيـة وأخلاقيـة، بـل هـي فعـل اجتماعـي حـي يتحـرك الصحفـي خلاله في مساحة معقدة تحكمهـا سـلطات أربـع تتداخـل وتتضـاد معًـا وهـي: سـلطة المجتمـع وسـلطة المعاييـر المهنيـة وسـلطة الهويـة الثقافيـة التـي يحملهـا الصحفـي نفسـه والسـلطة السياسـية والأمنيـة. وتفـرض هـذه السـلطات بدورهـا ضغوطًـا شـديدة تـكاد تتحـول إلـى معاييـر قسـريّة بديلـة، وهـو مـا يجعـل الصحفـي الاسـتقصائي في العالـم العربـي يسـير «فـوق حـد السـكين» بتعبيـر يسـري فـودة، محـاولا أن يـوازن بيـن هـذا الكـم الهائـل مـن السـلطات المتشـابكة.

توجـد فجـوات كبيـرة بيـن تلـك السـلطات؛ بيـن أن يكـون الصحفـي الاسـتقصائي صوتًـا للنـاس وللمجتمـع أو انعكاسًـا لثقافتـه وضميـره، وأن يكـون سـاعيًا لكشـف الحقيقـة؛ فالمجتمـع ليـس دائمًـا على حـق، والسـلطة ليسـت دائمًـا على باطـل، وهنـا تبـرز أهميـة وعـي الصحفـي الاسـتقصائي بتلـك الفجـوة، وكلما كان مرتفعـا ازدادت قدرتـه على ممارسـة دوره الرقابـي الفعـال دون الوقـوع في فـخ التبرير للمجتمـع أو لبعـض فئاتـه أو التجييـش ضـده، ومحاولـة تجنـب ابـتلاع السـلطة أو المجتمـع لـه، وعـدم الوقـوع في إكراهـات أيّ منهمـا.

النظام والمجتمع: زواج معقد

في البيئـات المعقـدة حيـث احـتلال الأرض وقتـل الإنسـان ومقاومـة العـدوان والحـروب والدمـاء والصراعـات وسـيادة الدكتاتوريـات والكـوارث والهجـرات تَبـرُز سـياقات جدليـة مشـحونة بالاسـتقطاب السياسـي الحـاد والأزمـات الاجتماعيـة العميقـة، ويتوقـع المجتمـع مـن الصحفـي الاسـتقصائي أن يصيـر لسـان حالـه ومدافعًـا عـن قضايـاه، لكـن المجتمـع ليـس كتلـة واحـدة كمـا هـو معروف بـل مجتمعـات صغيـرة متباينـة تـرى الأمـور بمناظيـر شـتى، وهـو مـا قـد يفـرض على الصحفـي الاسـتقصائي نوعًـا مـن التـورط الرمـزي في الصـراع؛ فيصنـف بسـهولة بيـن نقيضيـن: إمـا مدافـع عـن الوطـن أو خائـن لـه، مـوال أو معـارض، فيغيـب تقديـر الموضوعيةً لصالـح الأحـكام المسـبقة والانفعـالات الاجتماعيـة، ومـع تعاظـم الضغـط المجتمعـي على الصحفـي يوضـع في خانـة الاختيـار الحـرج بيـن «الجنـوح إلـى المجتمـع» و«النجـاة المهنيـة».

> **في المنطقة العربية تتسم المجتمعات بتنوعها العرقي والديني والطبقي والأيديولوجي، يضاف إليها نفوذ القبيلة الممتدة عبر الحدود، والعشيرة والأسرة وسلطة العادات والتقاليد، وهنا تتعاظم سلطة المجتمع على العمل الصحفي، وتزداد معها حساسية تناول قضاياه، وتتشابك كلها في سياج مع العمل الاستقصائي تؤثر فيه ويتأثر بها.**

الأصـل أن يكون الصحفي الاسـتقصائي موضوعيًـا دائمًـا؛ فهـو ليـس محايـدًا تمامًـا ولا ناشـطًا بالكامـل، إنـه وسـيط أخلاقـي ومعـرفي يسـعى لكشـف الحقيقـة كمـا توصـل إليهـا مـن

مصادرها الأولية الموثوقة مع وعي بأثرها عليه وعلى مؤسسته وعلى المجتمع أيضًا. هذا التوازن لا يتأتى إلا بالإدراك التام والمراجعة النقدية لموقع الصحافة الاستقصائية ودورها ووظيفتها في الظروف الحرجة بواسطة مؤسسات رصينة تحمي ما يسمى «الاستقصاء» من الانزلاق نحو الشعبوية أو ما يطلبه الجمهور، وذلك عبر تغذية الجوانب العاطفية والنفسية والقومية على حساب الواقع.

في تونس مثلًا، شهدت البلاد فترات من الاستقطاب الأيديولوجي الحاد بين الإسلاميين واليساريين وغيرهم، خاصة قبل وبعد إعلان 25 يوليو/تموز 2021 الذي مثّل تحولًا سياسيًا وُصف بأنه انقلاب دستوري. (2) يشرح الصحفي الاستقصائي ومدير موقع الكتيبة وليد الماجري كيف يتغير أثر الفاعل الاجتماعي على الصحفي بحسب نموذج الحكم القائم؛ فعندما يسود مناخ ديمقراطي يحترم التعددية وحرية الصحافة تتحول التحقيقات الاستقصائية إلى مصدر فخر وتقدير للصحفي وأسرته؛ إذ يغيب عنهم الخوف من العقاب أو التهديد، أما في النظم السلطوية فتصبح تُهم التخوين و«التكفير» والملاحقات الأمنية والقضائية هي العنوان الأبرز الذي يلاحق الصحفي الاستقصائي وعائلته ويهدد سلامتهما ووجودهما، وربما بمباركة اجتماعية أو بتواطؤ المجتمع وتقاعسه.

يقول الماجري لمجلة الصحافة: «هناك حالة وصم حقيقية وحالة عار اجتماعي في أن يكون ابنك سجينًا أو ملاحقًا أمنيًا أو قضائيًا» ويروي قصةً شخصيةً تعكس هذا العبء الاجتماعي حين حُكم عليه غيابيًا لمدة عام بسبب عمله صحفيًا؛ إذ اتهم بـ«إتيان أمر موحش ضد رئيس الجمهورية». (3)

يتحدث الماجري عن والدته التي شعرت بالخجل في الحي حين كانت تسمع همسات الجارات وهنّ يقلن: «ابنها في السجن... ابنها مسجون» رغم أنه لم يكن كذلك، ويضيف أن والدته كانت تعود إلى المنزل باكية طالبة منه أن يزورها علنًا كعادته، وأن يترك أكياس المشتريات أمام باب البيت حتى يراه أهل الحي ويعرفوا أنه ما زال حرًا طليقًا وليس خلف القضبان كما يشاع.

> **المجتمع ليس دائمًا على حق، والسلطة ليست دائمًا على باطل، وهنا تبرز أهمية وعي الصحفي الاستقصائي بتلك الفجوة، وكلما كان مرتفعا ازدادت قدرته على ممارسة دوره الرقابي الفعال دون الوقوع في فخ التبرير للمجتمع أو لبعض فئاته أو التجييش ضده، ومحاولة تجنب ابتلاع السلطة أو المجتمع له، وعدم الوقوع في إكراهات أيّ منهما.**

وفي خضم الحرب في سوريا، عمل الصحفي الاستقصائي مختار الإبراهيم عام 2016 من دمشق على كشف فساد توزيع المساعدات الدولية في المناطق المحاصرة؛ حيث طالت الاتهامات الجيش والمخابرات بالاستيلاء على جزء كبير من تلك المساعدات، غير أن المفاجأة جاءت من حيث لم يتوقع؛ إذ تعرض لضغوط شديدة من الجمعيات المشرفة على التوزيع ومن الأهالي المستفيدين أيضًا الذين حذروه من أن تحقيقه قد يتسبب في قطع المساعدات عنهم بالكامل؛ وذلك بأن توقف المنظمات الدولية دعمها بعد انكشاف أن قسمًا كبيرًا من المساعدات ينتهي إلى يد الأجهزة الأمنية والعسكرية التي هددته لاحقًا في حال نشر التحقيق، فآثرت المؤسسة التي يعمل الإبراهيم لصالحها سلامته، ولم ير تحقيقه النور.

يعلّق مختار الإبراهيم على تلك اللحظة قائلًا لمجلة الصحافة: «هذا يضع الصحفي أمام تحدٍ كبير... إنت بتشوف عائلة معتمدة على جزء يسير من المساعدات التي تصلها، وما عندها أي وسيلة ثانية للعيش» في حال قُطعت هذه المساعدات بسبب التحقيق.

سلطة الجمهور: الفيل الكبير

رغم ما تواجهه الصحافة الاستقصائية من ضغوط سياسية وأمنية إلا أن سلطة الجمهور تبقى أحد أثقل الفيلة في الغرفة؛ فهي سلطة غير مرئية لكنها حاضرة بقوة وقادرة على دعم الصحافة أو إسكاتها، وعلى تحويل التحقيق إلى أداة للمساءلة أو وقود للتحريض. في هذا السياق، توضح تجارب ميدانية كيف يمكن للجمهور أن يصبح خصمًا غير متوقع في معركة كشف الحقيقة.

تروي الصحفية اللبنانية حنان حمدان لمجلة الصحافة تجربتها أثناء إعداد مادة حول واقع أصحاب المؤسسات في القرى الحدودية الجنوبية بعد الحرب الإسرائيلية الأخيرة على لبنان، ورغم أن التحقيق كان ذا صبغة اقتصادية واجتماعية بحتة، واجهت ضغوطًا اجتماعية وسياسية كبيرة، ليس


تزداد التحديات بصعوبة الوصول إلى المعلومات والأدلة، إضافة إلى المعضلات الأخلاقية المرتبطة بسلامة الضحايا، إلى جانب الضغوط الاجتماعية والثقافية التي تفرض على الضحايا الصمت خوفًا من الفضيحة أو العار الاجتماعي أو النبذ المجتمعي (شترستوك).

بسبب المحتوى بل بسبب الهوية السياسية للجريدة التي تعمل بها، التي يرفضها جزء كبير من سكان تلك المناطق.

توضح حمدان أنها وجدت صعوبة بالغة في إقناع الناس بالتحدث إليها، رغم أن هدفها كان تسليط الضوء على معاناتهم بعيدًا عن السياسة، وتقول في هذا الصدد: «كنت متفهمة تمامًا لمخاوفهم، خاصة أنني أنتمي إلى قرية حدودية وأدرك حساسية الموقف... تقبلت الرفض بصبر، وحرصت على توضيح نيتي وهدف التحقيق مرارًا». وفي سوريا، كشف تحقيق استقصائي عن تزييف أعمار لاعبي منتخب كرة القدم تحت سن العشرين بفوارق تصل إلى خمس أو ست سنوات، (4) وهي ممارسة استمرت 15 عامًا في ظل حكم نظام الأسد، ويصف الصحفي أحمد حاج حمدو أحد معدّي التحقيق بأن التحقيق في الأمر «كان بمثابة مسّ للمقدسات» موضحًا لمجلة الصحافة أن الجمهور الرياضي - خاصة مشجعي كرة القدم - يتعامل بعاطفة جارفة مع الإنجازات الرياضية، وهو ما جعل التحقيق فيها محفوفًا بالضغوط قبل النشر وبعده.

ويضيف حمدو أن معظم من تواصل معهم حاولوا إقناعه بعدم النشر؛ بعضهم يحمي الفساد بحكم ارتباطه بالسلطة، لكن الغالبية كانت مدفوعة بالخوف على «ذاكرة وطنية جميلة» خشية أن يُفسر الكشف الصحفي على أنّه طعنة في كبرياء السوريين، ويتابع قائلًا: «بعد النشر وُصف فريق التحقيق بالعمالة والتآمر على الكرة السورية، وبلغت الضغوط حدًا جعلني أتمنى لو أنه لم يُنشر».

تكشف هذه التجارب أن سلطة الجمهور ليست دائمًا رافعة للحقيقة، بل قد تصبح أداة ضغط تدفع الصحفي إلى الرقابة الذاتية أو التراجع عن النشر، خاصة عندما تتقاطع الحقائق مع الرموز الاجتماعية أو الذكريات العاطفية. في

مثل هذه السياقات، يتحول الجمهور من ضحية للفساد أو الاستبداد إلى حارس للخطاب السائد، ويخشى أن تهتز الأساطير الوطنية أو السردية المجتمعية. ولذلك يحتاج الصحفي الاستقصائي إلى إدراك مزدوج؛ الأول إدراكه بحق الناس في المعرفة، والثاني بخطورة استعداء الجماهير، وذلك دون أن يقع في فخ سلطته، حيث التواطؤ أو التنميق.

القبلية: درع وعبء

في المجتمعات ذات البُنى القبلية والعشائرية - وهي متعددة في المنطقة العربية - لا يُنظر إلى الصحافة باعتبارها فقط وظيفة مهنية مستقلة بل امتدادا للانتماءات الاجتماعية والموقع القبلي أو العائلي للصحفي. يسبب هذا السياق تحديات مضاعفة على الصحافة الاستقصائية؛ لأن كشف الفساد أو المساءلة قد تتقاطع مع مصالح أو رموز عشائرية، وهو ما يُعرّض الصحفي لحصار اجتماعي يفوق في تأثيره أحيانًا الضغوط السياسية.

في عام 2011، صُدم الوسط الصحفي الأردني باقتحام ستة أفراد من عشيرة شخصية عسكرية سابقة مكتب الصحفي جهاد أبو بيدر والاعتداء عليه بالضرب؛ (5) بسبب نشره مقالا كشف فيه شبهات استغلال تلك الشخصية لمنصبها العام، ولم يكتف المهاجمون بذلك، بل حطموا أجهزة الحاسوب وهددوا أبو بيدر بالتصفية الجسدية رميًا بالرصاص إن تجرأ على نشر أي خبر عنها مرة أخرى.

وفي ظل ضعف الأحزاب والمجتمع المدني والثقافة المدنية وسيادة القانون، فإنّ الرقابة لا تنحصر ممارستُها في مؤسسات الدولة، بل تُمارس أيضا عبر منظومة من «الضبط الاجتماعي غير الرسمي»؛ حيث يُتوقع من الصحفي ألا يفضح قريبه أو ابن عشيرته أو شخصية نافذة ذات بعد قبلي، وأن يراعي «الهيبة» العشائرية للقبائل الأكثر حضورًا وقوة من عشيرته. يصعب على الصحفي ضمن هذه البيئة ممارسة دوره في نقد الممارسات ذات الصبغة العشائرية الحساسة حتى وإن كانت الحقيقة تتطلب خلاف ذلك. كما يمكن أن يُنظر إلى التحقيق الاستقصائي - أحيانًا - بوصفه خيانة لهوية الانتماء، أو يُساء تفسيره باعتباره موقفًا شخصيًا لا كشفًا موضوعيًا، أو استهدافا لمكون عشائري منافس؛ فعلى سبيل المثال أصدرت إحدى العشائر الأردنية بيانًا صحفيًا استنكرت فيه تصريحات لأحد المذيعين في برنامج إذاعي صباحي - اعتبرتها إساءة للعشائر الأردنية - وطالبت بتقديم اعتذار علني. (6) ولم يتوقف الأمر عند البيان، بل بادر بعض أفراد العشيرة إلى رفع دعوى قضائية ضد المذيع أمام المحاكم.

أما في حالات النزاع أو الخلافات بين القبائل فيجد الصحفيون أنفسهم أمام مأزق معقد؛ إذ إنهم جزء من هذه البنية الاجتماعية، وأي تغطية قد تُفسَّر على أنها «انحياز لطرف ضد آخر» وهو ما يعرّضهم لفقدان الثقة أو حتى للنبذ الاجتماعي من بيئتهم نفسها. (7)

بالإضافة إلى ما سبق تؤثر الثقافة القبلية والعشائرية في البيئة الاجتماعية التي يعمل ضمنها الصحفي الاستقصائي، ولا تقتصر هذه الثقافة على منظومة القيم والتقاليد، بل تمتد لتؤسس لمنظومة نفوذ اجتماعي وسياسي واقتصادي ذات امتدادات داخل جسم الدولة والإعلام، وهو ما يجعلها فاعلاً غير رسمي في توجيه العمل الصحفي وفرض «حدود غير مكتوبة» على ما يمكن أو لا يمكن كشفه.

ومن جهة أخرى، قد يشكّل الانتماء القبلي درع حماية للصحفي في البلدان التي لا تزال تعطي لهذا الفاعل الاجتماعي وزنًا كبيرًا؛ ففي بعض الحالات يمكن للعشيرة أن تردع محاولات استهداف الصحفي الذي ينتسب إليها من قبل السلطات السياسية أو الأمنية أو المكونات الاجتماعية الأخرى، ونلاحظ تتابع بيانات عشائرية لدعم وتأييد ومناصرة إعلاميين وصحفيين تعرضوا لمضايقات السلطة. (8) كما يوفر الانتماء القبلي لبعض الصحفيين غطاءً اجتماعيًا يسهل عمله مستفيدًا من شبكة العلاقات وصلات القربى الممتدة حتى داخل مؤسسات الدولة. (9)

> سلطة الجمهور ليست دائمًا رافعة للحقيقة، بل قد تصبح أداة ضغط تدفع الصحفي إلى الرقابة الذاتية أو التراجع عن النشر، خاصة عندما تتقاطع الحقائق مع الرموز الاجتماعية أو الذكريات العاطفية. في مثل هذه السياقات، يتحول الجمهور من ضحية للفساد أو الاستبداد إلى حارس للخطاب السائد، ويخشى أن تهتز الأساطير الوطنية أو السردية المجتمعية.

قضايا النساء والأطفال.. التعقيد الأكبر

في الوقت الذي صدرت فيه تقارير عن الأمم المتحدة تصف تدهورًا حادًا في ظروف احتجاز الرجال والنساء والأطفال الفلسطينيين في إسرائيل تصل إلى حد التعذيب الجنسي للنساء الفلسطينيات، (10) تعالت الكثير من الأصوات على منصات التواصل الاجتماعي محذرة من التعامل مع تلك الأخبار التي تخص الاعتداء الجنسي على النساء، (11) وهو ما حدث مع السيدة صاحبة التسجيل الصوتي الذي ذُكر فيه مزاعمُ اغتصاب نساء في مستشفى الشفاء بغزة قام به جنود الاحتلال الإسرائيلي، فدفع ذلك شقيقها إلى القول بأن الرواية غير صحيحة وقيلت من باب المبالغة، (12) وفي هذه الحالة يصبح من الصعب على الصحفي الاستقصائي أن يتحرى مثل هذه القضية - سواء بنفيها أو بإثباتها - دون أن يتعرّض لضغوط اجتماعية في مفترق تاريخي وقومي وإنساني بالغ الخطورة.

تُعد قضايا العنف الجنسي ضد النساء والأطفال من أكثر الملفات حساسية وتعقيدًا؛ (13) إذ تَقع غالبًا خلف أبواب مغلقة ويحيطها الصمت والخوف. ويتطلب توثيق هذه القضايا من الصحفي الاستقصائي جهدًا استثنائيًا لبناء الثقة مع الضحايا ودفعهم لاسترجاع تجارب مؤلمة، وهذا يجعل المهمة مرهقة نفسيًا للطرفين، وقد يتعرض الصحفي لصدمات ثانوية أو إرهاق عاطفي، وفي الوقت ذاته يواجه معضلة أخلاقية: كيف يكشف الحقيقة دون أن يزيد من معاناة الضحية أو يعرضها للخطر؟ وما يزيد المهمة صعوبة تجاوُز التغطية التقليدية للحدث العنيف بعيدًا عن جذوره وسياقه، وهنا تبرز مسؤولية الصحافة الاستقصائية في تجاوز هذا النمط السطحي، وتبني سرديات أكثر إنصافًا ووعيًا بأثر القصة على الضحايا والمجتمع، لتجنب الصدمة والوصمة. (14)

وتواجه الصحافة الاستقصائية مخاطر متزايدة عند تغطية قضايا المرأة والطفولة، أبرزها الانتقام والملاحقة؛ فقد وثّقت لجنة حماية الصحفيين عدة حوادث (15) منها اعتقالُ صحفيٍّ صومالي عام 2013 واتهامه بـ«إهانة مؤسسات الدولة» و«نشر الأكاذيب» فقط لأنه أجرى مقابلة مع ضحية اغتصاب اتَّهمتْ جنودًا حكوميين بالجريمة، علمًا

يفرض المجتمع بتنوعاته المختلفة على الصحفي الاستقصائي نوعًا من التورط الرمزي في الصراع؛ فيصنف بسهولة بين نقيضين: إما مدافع عن الوطن أو خائن له، موال أو معارض، فيغيب تقدير الموضوعية لصالح الأحكام المسبقة والانفعالات الاجتماعية (شترستوك).

أنـه لـم يكـن قـد نشـر التقريـر بعـد، بـل إن الضحيـة نفسـها تعرضـت للاعتقـال في محاولـة لإسـكاتها. (16)

وتـزداد التحديـات بصعوبـة الوصـول إلـى المعلومـات والأدلـة، إضافـة إلـى المعـضلات الأخلاقيـة المرتبطـة بسلامـة الضحايـا، إلـى جانـب الضغـوط الاجتماعيـة والثقافيـة التـي تفـرض على الضحايـا الصمـت خوفـاً مـن الفضيحـة أو العـار الاجتماعـي أو النبـذ المجتمعـي.

توضـح الصحفيـة المغربيـة إيمـان البلالـي المتخصصـة في قضايـا الهجـرة واللجـوء أن تنـاول قضايـا المهاجريـن المفقوديـن في البحـر كان ممكنـاً حيـن يتعلـق الأمـر بالرجـال، لكنـه يصبـح بالـغ الحساسـية عندمـا يتعلـق بالنسـاء. تقـول لمجلـة الصحافـة: «وجـدت نفسـي مـراراً أمـام جـدران صمـت سـميكة، ليـس بسـبب غيـاب المعلومـات بـل بسـبب الخـوف المتجـذر اجتماعيًـا مـن الفضيحـة والعـار» وتوضـح أن العمـل على هـذا الملـف كان أشـبه بالدخـول إلـى مناطـق محرمـة ثقافيًـا؛ حيـث يُنظـر إلـى الحديـث عـن اختفـاء فتـاة في البحـر أو احتجازهـا في مراكـز غيـر قانونيـة على أنـه وصمـة تلاحـق العائلـة لا مأسـاة إنسـانية تسـتحق الكشـف والعدالـة.

تـروي البلالـي كيـف أثّـر فيهـا تتبـع قصـص شـباب وشـابات مغاربـة فُقـدوا أثنـاء محاولتهـم عبـور البحـر نحـو أوروبـا؛ حيـث قوبلـت محاولاتهـا للتواصـل مـع عـائلات الفتيـات برفـض قاطـع، مفسـرة هـذا الرفـض بأنّـه ليـس بسـبب فقـدان الثقـة بالصحافـة، بـل خوفـاً مـن أن يتحـول الحديـث إلـى «تشـويه لسـمعة العائلـة» أمـام المجتمـع. وتنقـل البلالـي عـن والـد إحـدى الفتيـات المفقـودات قولـه بلهجـة حاسـمة: «النـاس سـيتحدثون عنـا... نحـن نريـد أن ننسـى»، لـم يكـن النسـيان بالنسـبة لـه تعبيـرًا عـن الحـزن أو العجـز، بـل «خطـة نجـاة اجتماعيـة» لحمايـة سـمعة العائلـة مـن الوصمـة.

> تؤثر الثقافة القبلية والعشائرية في البيئة الاجتماعية التي يعمل ضمنها الصحفي الاستقصائي، ولا تقتصر هذه الثقافة على منظومة القيم والتقاليد، بل تمتد لتؤسس لمنظومة نفوذ اجتماعي وسياسي واقتصادي ذات امتدادات داخل جسم الدولة والإعلام، وهو ما يجعلها فاعلاً غير رسمي في توجيه العمل الصحفي وفرض «حدود غير مكتوبة» على ما يمكن أو لا يمكن كشفه.

الدين والأقليات: حقل الألغام

الديـن والأقليـات ليسـا ميدانـاً عصيـاً على التحقيـق فقـط، بـل جبهـة مقاومـة صامتـة ضـد الصحافـة الاسـتقصائية في المنطقـة العربيـة، والتحـدي الأكبـر ليـس في كشـف الحقيقـة حيـن يتعلـق الأمـر بهمـا، بـل في إنتـاج خطـاب مهنـي قـادر على تفكيـك التابـو دون إشـعال النـزاع. مـا زلنـا نذكـر كيـف سـاهم الإعلام في إذكاء حـرب طائفيـة في العـراق، وهـذا يتطلـب مـن الصحفـي الاسـتقصائي أن يكـون ليـس محققـاً فقـط ، بـل أيضًـا مفاوضًـا ثقافيًـا (17) يتحـرك بيـن الحقـول الأيديولوجيـة بحـذر، دون أن يفقـد بوصلتـه الأخلاقيـة وشـرفه المهنـي.

مـا زالـت قضايـا الديـن والأقليـات تشـكل واحـدة مـن أعقـد سـاحات العمـل الصحفـي العربـي، حيـث تتداخـل الهويـات والعقائـد والتاريـخ والسـلطة والخـوف مـن شـيطنة الجماعـات أو تعزيـز الصـور النمطيـة، وتجـد الصحافـة الاسـتقصائية نفسـها أمـام معضلـة مزدوجـة: كيـف تكشـف الحقيقـة دون أن تغـذي خطـاب الكراهيـة أو تعيـد إنتـاج الانقسـامات؟ كمـا أنهـا حقـول ملغمـة لمـا تحملـه مـن رمزيـة عميقـة تتجـاوز الحقائـق لتلامـس مشـاعر الجماعـات وهوياتهـا، وأي تنـاول غيـر دقيـق قـد يشـعل نزاعـات أو يـؤدي لملاحقـات قانونيـة وتحريـض مجتمعـي يقـود إلـى الاحتـراب الأهلـي خاصـة في بيئـات الاسـتقطاب الحـاد كمـا في منطقتنـا، فقـد تُسـتخدم هـذه القضايـا لخدمـة أجنـدات سياسـية كمـا يحصـل الآن مـن اسـتخدام دولـة الاحـتلال خطـابَ المكونـات في سـوريا، بالإضافـة إلـى مـا يُحيـط هـذه القضايـا مـن محرمـات وخطـوط حمـراء تجعـل الاقتـراب منهـا مخاطـرة قـد تكلّـف الصحفـي سـمعته أو سلامتـه، ولا ننسـى أن الدولـة العربيـة مـا زالـت تحتكـر الحقـل الدينـي تنظيمًـا وتمـويلًا ورقابـة، وتسـتخدمه لتعزيـز شـرعيتها ومشـروعيتها للحكـم.

الرقابة الذاتية: القاتل الصامت

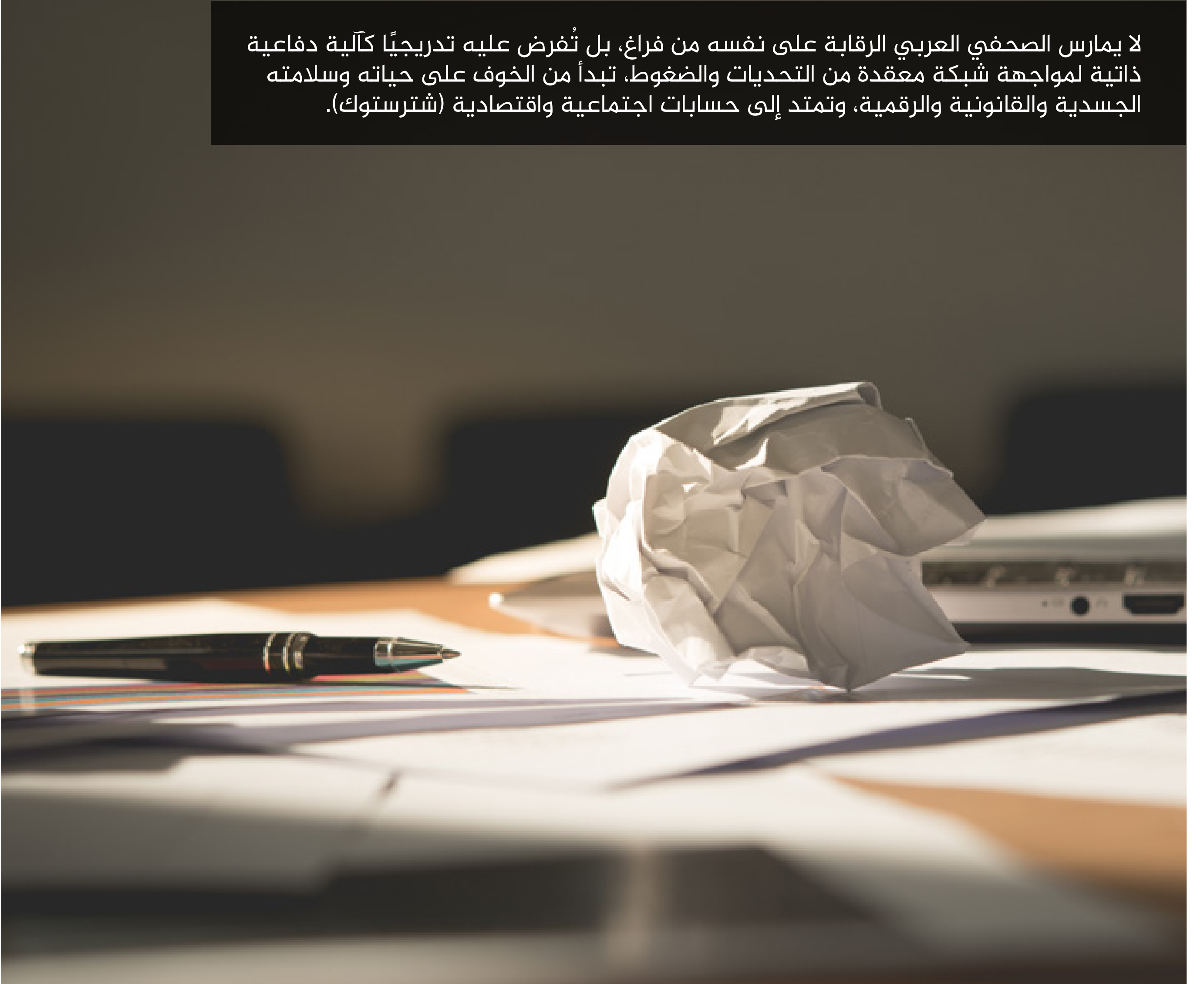
على عكـس الرقابـة الرسـمية التـي تمارسـها السـلطات في منطقتنـا العربيـة بشـكل مباشـر عبـر ترسـانة القوانيـن وأجهـزة الأمـن والقضـاء، فإن الرقابـة الذاتيـة تبـدو نتيجـة متوقعة

لتراكم الضغوط السياسية والأمنية والاجتماعية والثقافية التي تحاصر الصحفي الاستقصائي في البيئات المغلقة أو المتوترة سياسيًا ودينيًا.

إن الصحفي العربي لا يمارس الرقابة على نفسه من فراغ، بل تُفرض عليه تدريجيًا كآلية دفاعية ذاتية لمواجهة شبكة معقدة من التحديات والضغوط، تبدأ من الخوف على حياته وسلامته الجسدية والقانونية والرقمية، وتمتد إلى حسابات اجتماعية واقتصادية تجعله يشعر بأن كل كلمة يكتبها قد تكون لها كلفة باهظة.

وتعد الرقابة الذاتية والضغوط المجتمعية من أخطر أشكال القمع الخفي للصحافة الاستقصائية؛ فعندما يخشى الصحفي العزل أو التخوين داخل مجتمعه، يبدأ بممارسة رقابة داخلية تدفعه إلى تجنب بعض القضايا أو تفريغها من مضمونها بلغة مراوغة لا تلامس جوهر الحقيقة.

تُنتج البنية الاجتماعية في المنطقة العربية رقابة ذاتية مضاعفة، تجعل الصحفي لا يخشى الدولة فقط، بل يخشى قبيلته أو طائفته أو عائلته أو مجتمعه المباشر، (18) وهنا يترنح الصحفي بين المهنية والولاء المجتمعي، وهو ما قد يؤدي إلى الإحجام عن تغطية قضايا حساسة، أو صياغتها بلغة مبهمة، أو تحويل الاتهام إلى أطراف هامشية،



لا يمارس الصحفي العربي الرقابة على نفسه من فراغ، بل تُفرض عليه تدريجيًا كآلية دفاعية ذاتية لمواجهة شبكة معقدة من التحديات والضغوط، تبدأ من الخوف على حياته وسلامته الجسدية والقانونية والرقمية، وتمتد إلى حسابات اجتماعية واقتصادية (شترستوك).

أو التواطؤ مع الصمت الجماعي، والنتيجة واضحة: وهي إضعاف قدرة الصحافة الاستقصائية على تفكيك شبكات النفوذ المحلية التي تستمد قوتها من تحالف السلطة والنخبة الاجتماعية والمال.

تؤكد الصحفية الاستقصائية الأردنية حنان خندقجي أن هذه الضغوط حاضرة في تجربتها المهنية والشخصية، فهي تصنف التحديات التي تواجهها إلى عائلية ومهنية، مشيرة إلى أن زوجها هو الأقرب لما تعمل عليه من تحقيقات، وكثيرًا ما يحذرها من الملفات الحساسة قائلًا: «هذا الموضوع بجيب وجع راس». ومع ذلك، تؤكد حنان قدرتها على تجاوز المخاوف والمضي قدمًا في عملها.

أما في بيئة العمل، فتوضح خندقجي أنها فرضت على نفسها عزلة اجتماعية لحماية سرية التحقيقات وخصوصية المصادر في بيئة عمل تتميز بالترابط الاجتماعي، لكنها تعترف بوجود رقابة ذاتية ترافقها أحيانًا، خصوصًا في القضايا الجدلية مثل الدين والعشائر، فتقول: «في قضايا معينة أحس إنها كثير جدلية، أو ممكن تفتح أبواب للمشاكل... خصوصًا في الدين والعشائر ... فلا أفضل الخوض بها» أو التقصي حولها.

الرقابة الذاتية ليست ضعفًا شخصيًا بقدر ما هي نتاج تراكمات سياسية وثقافية واجتماعية (19) تُقيّد الصحفي وتكبح حريته، والتحرر منها لا يتحقق بالتدريب المهني وحده، بل يتطلب إعادة صياغة العلاقات بين الصحافة والسلطة والمجتمع والمؤسسات الإعلامية والنقابات، بل حتى بين الصحفيين الاستقصائيين أنفسهم. عندما يُنظر إلى الصحفي بصفته شريكا في كشف الحقيقة وخادما للصالح العام وليس مختلقًا للمشاكل أو مشوهًا للسمعة، عندها يمكن للصحافة الاستقصائية العربية أن تنهض بدورها الحقيقي في الرقابة والمساءلة.

> **ما زالت قضايا الدين والأقليات تشكل واحدة من أعقد ساحات العمل الصحفي العربي، حيث تتداخل الهويات والعقائد والتاريخ والسلطة والخوف من شيطنة الجماعات أو تعزيز الصور النمطية، وتجد الصحافة الاستقصائية نفسها أمام معضلة مزدوجة: كيف تكشف الحقيقة دون أن تغذي خطاب الكراهية أو تعيد إنتاج الانقسامات؟**

حليف محتمل للصحافة الاستقصائية؟

رغم هذه القيود التي تفرضها البِنى الاجتماعية والسياسية من ضغوط وصمت ورقابة مباشرة وذاتية، إلا أن المجتمع قد يتحول في لحظات فارقة إلى الحليف الأقوى للصحافة الاستقصائية؛ فعندما تبلغ المعاناة ذروتها، ويتفشى الفساد البنيوي والفقر والبطالة، وتغيب الحريات والعدالة الاجتماعية، وتنتهك الكرامة الوطنية وحقوق الإنسان، ويطرق العدو الأبواب ويكسر الحدود العربية بطائراته النفاثة ويرتكب الإبادة الجماعية في قلب الأمة وسط صمت مطبق، يجد الناس أنفسهم أمام خيار وحيد؛ هو كسر جدار الصمت، ويتحول الجمهور من مجرّد «متلقّ» إلى حليف موضوعي يدفع نحو التحقيق والمساءلة ويطالب بهما. عندئذ تتحول الضغوط الشعبية والحملات المجتمعية إلى وقود سريع الاشتعال يدفع الصحفيين نحو كشف الحقائق المسكوت عنها، خاصة في القضايا التي تمس حياة الناس مباشرة؛ مثل نهب المال العام وانتهاكات حقوق الإنسان، والتآمر على مستقبل البلد.

ولعل أبرز شاهد على ذلك ما حدث بعد ثورات «الربيع العربي» حين ارتفعت مؤشرات حرية الصحافة في عدة دول عربية قبل أن تتراجع من جديد تحت وطأة الثورات المضادة وعودة القبضة الأمنية وانكشاف المجتمعات العربية على هشاشة خطيرة في نسيجها الاجتماعي والوطني. وعلى الرغم من هذا التراجع، كشفت تلك المرحلة عن إمكانات هائلة لتحالف المجتمع مع الصحافة الحرة في مواجهة مختلف أشكال السلطة، وعن دور الإعلام الاستقصائي وقوّته في الرقابة والمساءلة.

لذلك سيظل الأمل قائمًا بأن المجتمع - حين يشتد الخناق عليه - يعود ليبحث عن الحقيقة من جديد، ويجد في الصحافة المستقلة التي تحافظ على مسافة نقدية من كل الأطراف صوتًا يعبر عنه ويدافع عن مصالحه حين تسقط المؤسسات الرسمية في مستنقع التواطؤ أو العجز.

المراجع

(1) شبكة أريج للصحافة الاستقصائية. «مفجّر فضيحة التحرش الجنسي: الإعلام الأمريكي إلى تراجع تحت رئاسة ترامب.» شبكة أريج للصحافة الاستقصائية, 2016. https://n9.cl/kwp8w7.

(2) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. «الانقلاب الرئاسي على الدستور في تونس: ظروفه وحيثياته ومآلاته.» المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. https://2u.pw/RE8pu.

(3) «حكم غيابي بسجن الصحافي التونسي وليد الماجري لمدة سنة.» العربي الجديد. 2024. https://2u.pw/MqWyz.

(4) الحمدو، باسل، أحمد حاج حمد، وآخرون. «الجيل الذهبي الكروي السوري المزيّف... مشاركة لاعبين سوريين شباب في بطولات دولية بأعمار مزيّفة.» سراج. 2014. https://2u.pw/UPGd1.

(5) «صحافيون يعتصمون أمام نقابتهم استنكارا للاعتداء على الزميل ‹أبو بيدر›.» عمون. 2011. https://www.ammonnews.net/article/85528.

(6) «عشائر العجارمة تصدر بياناً.» التاج الإخباري. 2025. https://2u.pw/f3kOG.

(7) Hanusch, Folker. «Journalism, Culture, and Society.» Oxford Research Encyclopedia of Communication. Published September 29, 2016. Accessed May 2, 2025. DOI: 10,1093/acrefore/9780190228613,001,0001/acrefore-9780190228613-e-78

(8) «عشائر العجارمة تصدر بياناً،» التاج الإخباري.

(9) «عشيرة التميمي: الاعتداء على الصحفيين يهدف لحجب الحقيقة.» السوسنة الإخباري. 2012. https://2u.pw/cd5eC.

(10) «قلق أممي إزاء تقارير الاغتصاب والعنف الجنسي ضد المعتقلين الفلسطينيين لدى إسرائيل.» الأمم المتحدة. 2024. https://news.un.org/ar/story/2024/09/1134231.

(11) MohmedNajjar88@. «حادثة الاغتصاب في مستشفى الشفاء التي تحدثت عنها الشاهدة لقناة الجزيرة غير مثبتة، والكلام كان كلاما عاما... رغم كل جرائم المحتل، إلا أنه لم يثبت حتى اللحظة أي حادثة اغتصاب...» X (formerly Twitter). March 24, 2024. https://x.com/MohmedNajjar88/status/1771876331149463934.

(12) YouTube. «مقربون من حماس وشقيق صاحبة رواية اغتصاب النساء في مستشفى الشفاء: غير صحيحة وقالتها من باب المبالغة.» YouTube video. Posted March 26, 2024. https://www.youtube.com/watch?v=YQEjtsLVUKw.

(13) فرانك سميث. «استجماع الشجاعة لتغطية العنف الجنسي.» لجنة حماية الصحفيين. تاريخ الدخول 13 أيار 2025. https://n9.cl/cfcz6.

(14) الشوابكة، مصعب، محمد اغباري، ودانة جبريل. دليل التحقيقات الصحفية من أجل حقوق الإنسان. صحفيون من أجل حقوق الإنسان، 2020.

(15) سميث، «استجماع الشجاعة.»

(16) المرجع السابق.

(17) Hanusch, «Journalism, Culture, and Society.»

(18) Hanusch, «Journalism, Culture, and Society.»

(19) Hanusch, «Journalism, Culture, and Society.»

الإعلام الرياضي في الجزائر.. هل أصبح منصة لنشر خطاب الكراهية؟

فتيحة زماموش

كيف انتقل خطاب الكراهية الرياضي من الشارع إلى مؤسسات الإعلام؟ وهل تكفي التشريعات القانونية للحد من تغذية الانقسام داخل المجتمع؟ وإلى أي مدى يمكن أن يلتزم الصحفيون بالموضوعية في ظل ضغوط شديدة من الجمهور؟
الصحفية فتيحة زماموش تحاور صحفيين رياضيين وأساتذة جامعيين، للبحث في جذور هذه الظاهرة.

تجاوزت لُعبة كرة القدم في الجزائر حُدود المُنافسة داخل المُستطيل الأخضر، لتُصبح ساحة تعكس صراعات أكبر، حيث تُحذّر العديد من الأصوات من تحوّل المنابر الإعلامية الرياضية إلى منصات تُروّج لخطاب الكراهية.

تسلّلت هُتافات الجماهير أو المُشاحنات في المدرّجات، إلى عُمق الخطاب الإعلامي ذاته، عبر عناوين مُثيرة وتحليلات تُلهب المشاعر وآراء مُنحازة تُغذّي الانقسام، تحت غطاء «الإثارة»، مبتعدة تدريجيًا عن رسالتها الأساسية في التوعية وتعزيز روح المنافسة.

من الشّارع.. «تسلُّل» ناعِم

يمكِن لمح كلمة: «المُتعصّبون»، «فاناتيك- fanatic» مطبُوعة بالأحمر على جُدران عدّة أحياء شعبية معروفة بالجزائر يعكسه حب المناصرين لِفرقهم، لكنهاتُخفي الكثير من الشّحنات السلبية التي تُغذّي عُقول المهووسين بالكُرة.

أضحى هذا الخطاب المشحُون بالتحريض ينتقل تدريجيًا من الشارع إلى الإعلام، حيث تسلّلت هذه الظاهرة إلى بعض المؤسسات التلفزيونية في الجزائر، حتى أصبح من الصعب التمييز بين مُتعة اللّعبة وأعراض المرض الذي يفتِك بها من الدّاخل.

ورصدت السُّلطة الوطنية المستقلة لضبط السمعي البصري تجاوزات مهنية في بعض البرامج الرياضية خلال شهر نيسان/ أبريل 2025، على قناة «الهداف»، وأشارت إلى خروج أحد المحللين عن الحِياد والموضوعية في برنامجي «بالمكَشوف» و«VAR الهداف» خلال الشهر ذاته. (1)

واعتبرت الهيئة الرسمية ذلك «خرقًا للقوانين المُنظّمة للإعلام والسمعي البصري في الجزائر»، كما شدّدت على أنّ «الإعلام الرياضي يجب أن يكون أداة لتعزيز الوعي وروح المنافسة الشريفة، لا وسيلة لإثارة الانفعالات أو التّشكيك».

كما أوقفت الهيئة نفسها، برنامجين رياضيين هما «أحكي بالون» على قناة «البلاد» و«دزاير سبور» على قناة «دزاير تيوب»، بعد «رصد تجاوُزات تضمّنت بثّ خطاب يحرض على الكراهية والتمييز ويمس بكرامة الإنسان»(2).

وينصّ قانون «الوقاية من التمييز وخطاب الكراهية» الذي صدر في 2020 «على عقوبة السجن 7 سنوات مع التنفيذ ضدّ أي شخص يصدر كلاماً، شفوياً أو مكتوباً، يتضمن عنصرية وتعبيراً عن الكراهية».

ويرمي القانون إلى «التصدي لخطاب الكراهية وتعزيز السلم الاجتماعي، حيث يحدد عقوبات صارمة ضد كل من يروج للكراهية والتمييز، وهو ما ينسجم مع توجهات السلطة في مراقبة الإعلام وضمان أن يكون أداة لنشر الوعي وروح المنافسة الشريفة، بدلًا من أن يتحوّل إلى مصدر للانقسام والتحريض.» (3)

من الملعب إلى الشاشة

الملفت أنّ هذا الخطاب المُتشنِّج، أو المُنحاز أحيانًا، ليس وليد اليوم، بل تعُود جذوره إلى تسعينيات القرن الماضي، مع ظهور الصحافة الخاصة، وتبلور في ظل بيئة سياسية واجتماعية مضطربة، ساهمت في تشكيل خطاب إعلامي مُتفاعل، لكنّه بعيد أحيانًا عن المهنية.

هكذا يبرُز سؤال جوهري: كيف يمكن للإعلام أن يوازن بين حرية التعبير ومسؤوليته في الحدّ من خطاب الكراهية في ظلّ تصاعد الضغوط الجماهيرية وسرعة التفاعل الإلكتروني؟

هذا السؤال ينبع من كون وسائل الإعلام لم تفصل بين اللغة الإعلامية المهنية واللغة الجماهيرية، فبات الخطاب أقرب إلى ما يُتداول في الملاعب والمقاهي، يُخاطب العاطفة والانتماء أكثر مما يخاطب العقل بالمعلومة.

يُقِرّ العديد من الصحفيين بأنّ عدوى خطاب الكراهية في الرياضة وخاصة كرة القدم، لم تعُد حكرًا على الشارع والمُدرّجات، بل انتقلت إلى شاشات التلفزيون، فالحدث الرياضي يُنقل، في كثير من الأحيان، بلغة بسيطة ومُتفاعلة، تميل إلى استرضاء المُشاهد/ المُناصر، أكثر من سعيها إلى تقديم مُحتوى رصين يستنِد إلى التحقّق من المُعطيات، ويحتكِم إلى أخلاقيات المهنة.

على هذا النحو يتحوّل الإعلام من ناقل مِهني للخبر إلى صدى للجماهير، ما يُؤدّي إلى فُقدان الدّور الإخباري والتّوعوي في الكثير من الأحيان، كما يُؤكّد الصحفي بالموقع الإلكتروني «أخبار دي زاد » حسن بن مُولى.

ويحاجج حسن في تصريح لـ «مجلة الصحافة» بحالِ الصحفيين الذين فرّقتهم الكُرة المُستديرة ؛ إذ أصبح بعضهم أسير انحيازه لفريق أو لاعب مُفضّل، فكان القلم أو الميكروفون ضحية لتعصُّب صاحبه، الذي يتماهى أحيانًا مع مشاعر الجُمهور داخل الملعب».



«تُمارس بعض المؤسسات الإعلامية ما يمكن وصفه بـ«العُنف اللفظي»، حيث تنتقّل المُنافسة من الملاعب إلى أستوديوهات التحليل، التي تحوّلت، في نظر كثيرين، إلى ما يُشبه «الدّكاكين التلفزيونية» (تصوير: بلال بن سالم - غيتي).

لقد عنونت إحدى الصحف الرياضية صفحتها الأولى «اليوم ما تفْرَاش في الحراّش»، (لا مجال للتّهدئة في منطقة الحراش)، وذلك قُبيل مُواجهة كانت مُبرمجة بين الجارين مولودية الجزائر واتحاد الحراش، حين كان الأخير لا يزال ضمن أندية القسم الأول.

> تسلّلت هُتافات الجماهير أو المُشاحنات في المدرّجات، إلى عُمق الخطاب الإعلامي ذاته، عبر عناوين مُثيرة وتحليلات تُلهب المشاعر وآراء مُنحازة تُغذّي الانقسام، تحت غطاء «الإثارة»، مبتعدة تدريجيًا عن رسالتها الأساسية في التوعية وتعزيز روح المنافسة.

حملت العبارة «طابعا انفعاليًا» سلبيا، خاصة أنّ الصحيفة المعنية باتت طرفا مع مرور السنوات في الانحياز لفريق دون آخر»، وفقا لخط تحريري قوامه: « الفئة المستهدفة من الجمهور».

من خلال هذه العينة فقط-حسب بن مولى-فإنّ السقوط في الانحياز بات واضحاً، وهو ما أفقد بعض المؤسسات الإعلامية موضوعيتها.

البساطة أم الابتذال

قد يبدو هذا السؤال مُحرجًا للصحفيين، إذ أنّ البساطة الزّائدة قد تُفهم على أنّها استخفاف، بينما يُعدّ الابتذال تُهمة تُهدّد المصداقية.

وفقًا لـ «اعترافات» عدد من الصحفيين، بعضهم فضّل التحدُّث باسم مُستعار، بدأت الصحافة الرياضية تحِيد تدريجيًا عن مسارها المهني، أمّا الظُّهور على الشاشة، فله قواعده الخاصة، التي غالبًا ما تُدار بمنطق «الفُرجة - الاستعراض». يقول يزيد سياح الصحفي بالإذاعة الوطنية: «يتوجّه الإعلام الرياضي لقارئ ومُتلقّ بسيط، لكن السماح للغة الشارع بالتسلّل إلى خطابات الصحفيين كان سببًا رئيسيًا في تدهور مستوى المضمون. في النهاية، السؤال الجوهري هو: مع من نتحدّث؟»

ويُضيف، أنّ المشكلة لا تقتصر على اللغة فقط، بل تمتدُّ إلى الأسلوب والخطاب. «إذ تُمارس بعض المؤسسات الإعلامية ما يمكن وصفه بـ«العُنف اللفظي»، حيث تنتقّل المُنافسة من الملاعب إلى أستوديوهات التحليل، التي تحوّلت، في نظر كثيرين، إلى ما يُشبه «الدّكاكين التلفزيونية».

وتُعاني بعض القنوات الخاصة، التي وُلدت عام 2001، من فوضى هيكلية (4)، حيث اعتمدت

على الظهور الإعلامي السريع والمستعجل دون التركيز على بناء مؤسسات إعلامية مهيكلة ومنظمة بشكل جيد.

ضغط الاستقلالية والإثارة

تُبرز الباحثة في مجال الإعلام الرّقمي بجامعة قسنطينة شرق الجزائر، كريمة آيت حمي، مكانة شبكات التواصل الاجتماعي التي أصبحت، «بمثابة منبر مفتوح للتعبير الشخصي، حيث اختار البعض استخدامها لطرح آرائهم الخاصة بعيدًا عن مطالب الجمهور»، مُشيرة إلى أنّ هناك من يختبئون خلف أسماء مستعارة في «فضاء الوهم» الذي يخلقه الإنترنت.

وتُضيف لـ «مجلة الصحافة»: « تُوجّه بعض القنوات التلفزيونية الأقلام وفقًا لميول موجاتها في إشارة صريحة إلى تراجع الاستقلالية المهنية أمام تغوّل الخط التحريري الموجَّه متجاوزا الخطوط المهنية حدّ بث «سموم الكراهية»، وفق تعبيرها.

أمام هذه المعادلة المعقدة تتساءل آيت حمي: كيف يحافظ الإعلامي على الموضوعية، بينما يتعرّض لضغوط من الجمهور لاتخاذ الشارع مواقف منحازة؟ وفي كثير من الأحيان، يتحوّل اسمه إلى «ترند» على مواقع التواصل، فيجد نفسه في مواجهة سيل من الانتقادات أو حتّى الإهانات، ما يجعله واقعًا تحت ضغط مزدوج: بين متطلبات المهنة ومتاهات الرأي العام المنقسم حول «الجلد المنفوخ» (تعبير يستخدم لوصف كرة القدم).

بدوره يعترف حميد زمّال، الصُّحفي سابقاً والأستاذ بكلية الإعلام بالجزائر العاصمة، في حديثه مع «مجلة الصحافة» أنّه في إحدى المرات حاول تقديم تغطية موضوعية لمباراة بين «شباب بلوزداد» و«وفاق سطيف»، لم يجد أمامه إلّا تكرار كلمة «الأبيض»، التي تربط بين النّاديين العريقين كونهما يتشاركان اللّون نفسه، وهذا سعياً منه لتقديم تغطية «موضوعية ومحايدة».



تُؤدّي المنصّات الرّقمية دورًا محوريًا في تأجيج الخلافات، حيث تتحوّل بسرعة إلى منصات مفتوحةَ لتفريغ الغضب، سواءً قبل المباريات الكبرى مثل التنافس على الترتيب أو بعدها في علاقة باللقاءات التي تعرف جدلًا تحكيميًا (تصوير: العربي الوافي- رويترز).

> يُقرّ العديد من الصحفيين بأنَّ عدوى خطاب الكراهية في الرياضة وخاصة كرة القدم، لم تعُد حكرًا على الشارع والمُدرّجات، بل انتقلت إلى شاشات التلفزيون، فالحدث الرياضي يُنقل، في كثير من الأحيان، بلُغة بسيطة ومُتفاعلة، تميل إلى استرضاء المُشاهد/ المُناصر، أكثر من سعيها إلى تقديم مُحتوى رصين يستنِد إلى التحقُّق من المُعطيات، ويحتكِم إلى أخلاقيات المهنة.

ولكنه لا يُخفي ميلاً ضمنيًا نحو أحد الناديين من خلال كلامه طيلة الـ 90 دقيقة من عمر تلك المباراة.

ويرى أنّه «ما يجعل من الموضوعية التي يدّعيها أمرًا يصعب تحققه في ظل هذا الانحياز الضمني».

وفي السياق ذاته عبّر الأستاذ زمّال عن أسفه لـ«تراجع مستوى الصحافة والإعلام، حيث أصبح التبسيط المُبالغ فيه سمة رئيسية للتغطيات الإعلامية».

الجِهوية.. حين تتحوّل المُباراة إلى أزمة

يتطلّب تحليل المباريات أكثر من مجرّد فهم القواعد، فهو يشمل أيضًا المسؤولية في اختيار الكلمات والمعلومات الموجهة للجمهور، مثلما يؤكد الصحفي الحرّ مليك نواري.

ويُعبّر عن ذلك قائلاً: «في بعض الأحيان، يمكن أن يؤدي نشر معلومات مليئة بالتفرقة والعنصرية إلى تحويل نتيجة مباراة إلى رماد». (5)

ويسترجع مليك نواري في تصريح لـ «مجلة الصحافة» حادثة وقعت معه خلال تغطيته لمبارَاة نهائي كأس الجمهورية عام 2013 بين مولودية الجزائر واتحاد العاصمة، حيث كانت العناوين الصحفية في بعض المؤسسات الإعلامية تثير الفتنة، مثل العنوان البارز «الحرب في باب الوادي»، في إشارة إلى الحي الذي يلتقي فيه أنصار الفريقين. «للأسف، أحيانًا تُسهم الصحافة في تأجيج المواقف، رغم أن المباراة كانت بمثابة عيد بعيدًا عن العنف الذي لم يكن له وجود إلا في صفحات الجرائد، لذلك ينبغي دائمًا التعامل مع الأحداث المثيرة للجدل بحذر، دون الانزلاق إلى تفسيرات قد تزيد من الاحتقان بين الجماهير».

ومن خلال تجربته في العديد من المنابر الإعلامية الجزائرية، قال إنّ مُباراة الصعود من القسم الثاني بين اتحاد الحراش والرويسات (27 شباط/ فبراير 2025) كادت أن تأخذ أبعادًا خطيرة، ووفقاً له أبرزت خطورة الانزلاق في الخطاب الإعلامي، خاصة عند التعليق على أحداث مشحونة. (6)

وفي هذا السياق؛ تُؤدّي المنصّات الرّقمية دورًا محوريًا في تأجيج الخلافات، حيث تتحوّل بسرعة إلى منَصات مفتوحة لتفريغ الغضب، سواءً قبل المباريات الكبرى مثل التنافس على الترتيب أو بعدها في علاقة باللقاءات التي تعرف جدلاً تحكيميًا. كثيرا ما تنزلق التّعليقات على منصات السوشيال ميديا إلى مستوى تبادل التّجريح تصل حدّ الشّتم، مما يُعمّق الانقسام بسبب سرعة انتشار هذا النّوع من المحتوى المسيء، وهو ما يُضعف الروح الرياضية، كما يُساعد في الآن نفسه على توليد ثقافة الكراهية.

من وسائل التواصل الاجتماعي إلى التلفزيون.. اتجاه معاكس

يُبرز أستاذ الاتصال، عبد الله لعريبي من جامعة الجزائر، كيف تحوّل الإعلام الرياضي إلى مرآة تعكس بشكل غير مباشر، فيما يُثار على منصات التواصل الاجتماعي، إذ تجد التعليقات والانفعالات التي تنطلق من العالم الافتراضي طريقها إلى الشّاشات، أحيانًا دون تمحيص أو مسؤولية، مما يضعنا أمام تساؤل حقيقي.

ويلاحظ الأستاذ لعريبي في حديث لـ «مجلة الصحافة» تحولاً عكسيًا، حيث أصبح الإعلام أداة لتكرار ما «تُروّجه الجماهير، ممّا يُسهم في تأجيج الانقسامات والتحريض وإذكاء الفتنة والكراهية بدلاً من نقل الأحداث بموضوعية كما يجب.»

كما يتساءل هل ما تعرضه الشاشات يعكس فعلاً واقع الرياضة، أم أنّه مجرد صدى لغضب رقمي يعمّق الصراعات بدلاً من إيجاد الحلول؟

ويقول إنّ «الإعلام الرياضي لا يقتصر على نقل الوقائع من الملاعب فقط، بل أصبح أداة لتمرير ما يُقال في وسائل التواصل الاجتماعي»، مُعززًا بذلك الحساسيات خُصوصاً ما يُعرف بـ»الجهوية المقيتة التي تُغذي بدورها الكراهية بين الجزائريين».

ولفت إلى أنّ هذا السُّلوك لا يُضفي شرعية على الانفعالات الرقمية فحسب، بل يُسهم في التحريض وتغذية الانقسام بين الجماهير مثل حالة مولودية الجزائر وشباب قسنطينة، إذ تحولت في الآونة الأخيرة إلى كراهية بين المناصرين وأعمال شغب، بدلاً من أن يكون عامل تهدئة.

بناءً على هذا الواقع الإعلامي المرتبك، يبدو أنّ خطاب الكراهية في الرياضة لم يعُد مجرّد انزلاق ألفاظ، بل أصبح ظاهرة تتغذّى من الشارع، كما تُعيد إنتاج خطابات المنصات الاجتماعية وتنزيلها على البرامج التلفزيونية، ما أسهم في توسيع الفجوة بين الجماهير عن طريق تأجيج الجهوية تارة واللّعب على وتر الانفعالات العاطفية تارة أخرى، وهو ما يستدعي مُراجعة شاملة للخطاب خاصة في علاقته بكُرة القدم التي أصبحت في مُناسبات عديدة لُعبة تفرقة لا مُتعة وفُرجَة.



تجاوزت لُعبة كرة القدم في الجزائر حُدود المُنافسة داخل المُستطيل الأخضر، لتُصبح ساحة تعكس صراعات أكبر، حيث تُحذّر العديد من الأصوات من تحوّل المنابر الإعلامية الرياضية إلى منصات تُروّج لخطاب الكراهية (تصوير: بياراس أو ميديتش - غيتي).

المراجع

(1) أوراغي، نضيرة. «دون عنوان». أخبار الوطن. الجزائر. 2025.

(2) الشروق اليومي. «هل يريد ترامب جذب استثمارات جزائرية إلى أمريكا» . الجزائر: موقع صحيفة الشروق اليومي. 2025. https://www.echoroukonline.com.

(3) وكالة الأنباء الجزائرية. «قانون مكافحة التمييز وخطاب الكراهية: صيانة الوحدة الوطنية والانسجام المجتمعي». الجزائر: وكالة الأنباء الجزائرية، 2020. https://www.aps.dz/ar/algerie/98474-2020-12-22-11-32-48.

(4) مراح، سعيد. الفضائيات الجزائرية الخاصة بين الواقع والتحديات. الجزائر: جامعة باتنة. 2023.

(5) Facebook. «فيديو منشور على Facebook Watch». Facebook Watch. تاريخ غير معروف. https://web.facebook.com/watch/?v=683923400889039.

(6) كالة الأنباء الجزائرية. «أحداث لقاء فريقي مستقبل الرويسات واتحاد الحراش: أصحاب المناشير الإلكترونية التحريضية في قبضة الأمن الوطني». وكالة الأنباء الجزائرية. 6 مارس 2025. https://www.aps.dz/ar/algerie/176681.

كيف تعيد غزة تعريف العمل الصحفي

آنا ماريا مونخاردينو
ترجمة: إيمان أبو حيّة

مباشرة بعد الشروع في حرب الإبادة الجماعية أغلق الاحتلال الإسرائيلي غزة في وجه الصحفيين الدوليين، وتبنى نسقا إباديا ممنهجا ضد الصحفيين الفلسطينيين، أعاد «النشطاء» تعريف المهنة بتغطيات مفتوحة ومحدثة أحدثت نوعا من التوازن ضد الصحافة الغربية المنحازة.

واجب الصحفيين يقتضي قول الحقيقة، ومع ذلك، وفقًا لنموذج الدعاية الذي وضعه نعوم تشومسكي وإدوارد هيرمان، يتمثل دور وسائل الإعلام في تسلية الجماهير وترفيههم وإعلامهم وغرس القيم والمعتقدات وقواعد السلوك التي من شأنها دمجهم في البنى المؤسسية للمجتمع الأكبر.

ما قامت به وسائل الإعلام الغربية في تغطيتها للإبادة الجماعية الراهنة في فلسطين يعد أوضح مثال معاصر على حملة التلاعب الذي تمارسه وتتورّط فيه.

لقد دفعت القيود الإسرائيلية المفروضة على دخول الصحفيين الأجانب لغزة إلى كتابة رسالة (1) مفتوحة وُجّهت إلى السلطات الإسرائيلية في يوليو/تموز 2024، ورغم ذلك، تواطأ العديد من الموقعين عليها - بوعي كامل - على رواية القصة من منظور صهيوني، وأصرّوا على تهميش سردية الصحفيين الفلسطينيين المستندة إلى الأدلة، رغم كفاءتهم المهنية العالية في أرض الميدان، وانخرط كثيرون بالترويج لمزاعم لا أساس لها من الصحة حول قطع رؤوس (2) الأطفال والاغتصاب المنظَّم (3) وصولاً إلى الرقابة الذاتية (4) على المحتوى الذي يكشف معاناة الفلسطينيين.

الصحفي كريس دويل مدير مجلس التفاهم العربي البريطاني كتب (5) حول ذلك: «من الواضح أن العقلية السائدة لدى العديد من السياسيين والشخصيات الإعلامية في أوروبا والولايات المتحدة تقوم على أن الصحفيين الفلسطينيين في غزة لا يُعترف بهم ولا يمنحون أي اعتبار». ويضيف: « إنّهم يُعاملون كما لو أنهم غير جديرين بالثقة، وعاجزون عن أداء عمل صحفي مهني».

إن الهوّة بين ما يعرضه الفلسطينيون لنا وبين ما تنتقيه وسائل الإعلام الغربية المختلفة وتعرضه، يدل على تحول خطير في المعايير الصحفية السائدة، تلك التي يُفترض أنها تقوم على مبدأ أساسه قول الحقيقة.

إلا أن هذا التحوّل لم يبدأ اليوم، بل هو جزء من سيرورة طويلة عبّر عنها ستيوارت آلان في كتابه «شهادة المواطن: إعادة تصوّر الصحافة في زمن الأزمات» بالقول: «عند النظر إلى عدد من السياقات الوطنية، يبدو من المنصف القول إنه قد طرأ على مدار القرن الماضي تبدّلٌ تدريجيُّ - ولو أنه متفاوت- في التصورات المتنوعة للصحافة؛ فنًا كانت أو حرفة أو تجارة أو رسالة أو مهنة. وقد تم ذلك لصالح «مكانة» مهنية حصريّة مدّعاة؛ وذلك لضمان التميُّز عن غير المحترفين وغير المختصين من العامة».

لكن - في ظل غياب هؤلاء الصحفيين الذين تُنسب إليهم «الاحترافية المهنية» - تحوّل الكثير من الشباب الفلسطينيين بفعل شهادتهم على هذه الحرب إلى صحفيين. هكذا أصبحنا نعتمد على عدد كبير منهم لمتابعة التحديثات اليومية، كما برز بعضهم واكتسبوا شهرة خاصة وحضورًا كبيرًا، ممّن أرسوا نمطًا من السرد الصحفي الذي يتسم بالعمق العاطفي غير المحايد، ولكنه ينسجم مع المعايير النقدية في كونه محتوى صادقًا. ومن خلال التغريدات والمقاطع المصوّرة، والتقارير والمقالات، لم تكن قدرة هؤلاء الشباب على توثيق الحقيقة نقيضًا لمشاعرهم، بل منبعثة منها ومتشابكة معها. لقد دفعتهم قسوة الواقع الذي يعيشونه إلى الاقتراب من الحقيقة أكثر مما يسع أي صحفي من خارج غزة تصويره أو التعبير عنه حتى لو رغب في ذلك. وكما كتب الصحفي الفلسطيني حسام شبات (6) في تمهيد موجع سبق مقتله على يد قوات الاحتلال في 25 مارس/آذار 2025: «على مدى الثمانية عشر شهرًا الماضية، كرّستُ كل لحظة من حياتي لشعبي. وثّقتُ الفظائع في شمال غزة دقيقةً بدقيقة، مصمّمًا على أن أظهر للعالم الحقيقة التي حاولوا طمسها.»

> **إن الهوّة بين ما يعرضه الفلسطينيون لنا وبين ما تنتقيه وسائل الإعلام الغربية المختلفة وتعرضه، يدل على تحول خطير في المعايير الصحفية السائدة، تلك التي يُفترض أنها تقوم على مبدأ أساسه قول الحقيقة.**

صحفي الصدفة

يقول الصحفي أبو بكر عابد صحفيٌّ «وليد الصدفة» في ظل الحرب، الذي ولد على الخطوط الأمامية للإبادة الجماعية التي أودت بحياة ما لا يقل عن 60 ألف فلسطيني منذ السابع من أكتوبر/تشرين الأول 2023: «لقد أنتجت الصحافة الفلسطينية في ظل أكثر الظروف رعبًا». (7) ومع ذلك «لقد خذلنا المجتمع الدولي، وخصوصًا المؤسسات الإعلامية الدولية». قالها عابد بينما كان محاطًا بزملائه من الصحفيين الفلسطينيين خلال مؤتمر صحفي عُقد في يناير/كانون الثاني.

ورغـم أنهـم تولـوا المهـام التـي درجـت العـادة أن يتولاهـا مراسـلون ذوو خبـرة، إلا أنهـم لـم يحظـوا بـأي حمايـة.

تنـص المادة 79 مـن البروتوكـول الإضـافي لاتفاقيـة جنيـف على أن «الصحفييـن المشـاركين في مهـام مهنيـة خطـرة في مناطـق النـزاع المسـلح يُعتبـرون مدنييـن.» ويُفترض أن يُطبّـق (8) بعـد ذلـك «دون المسـاس بحـق المراسـلين الحربييـن المعتمديـن لـدى القـوات المسـلحة»، كمـا ورد في المادة 4. لكـن هـذا الإطـار القانونـي لـم يُطبّـق، ولا يـزال الصحفيـون الفلسـطينيون يدفعـون الثمن حيـث قُتـل مـا لا يقـل عـن 214 صحفيـا إلـى حـدود الآن في إسـرائيل والأراضـي الفلسـطينية المحتلـة منـذ أكتوبر/تشـرين الأول 2023، وهـذا يجعـل فلسـطين «أخطـر دولـة في العالـم على الصحفييـن». وفي غـزة وحدهـا، تشـير مصـادر أخـرى إلـى أن العـدد قـد يكـون أعلى بكثيـر. وعلى هامـش ذلـك يـرى كريـس دويـل أنـه: «في القـرن الواحـد والعشـرين ينبغـي بـذل جهـد أكبـر لحمايـة الصحفييـن في مناطـق النزاعـات؛ لأن الحـرب الإعلاميـة أصبحـت على مسـتوى مختلـف كليًـا، والتحكـم في السـرد بـات أمـرًا بالـغ الأهميـة.» وبالنسـبة لأبـو بكـر عابـد، فـإنّ مواصلـة العمـل الصحفـي واجـب لا محيـد عنـه؛ لأن خصومـه في معركـة التحكـم بالسـردية لا يقتصـرون على مُحتلّـه فحسـب، بـل فيهـم أيضًـا قـادة العالـم ووسـائل الإعلام الغربيـة الرئيسـية. ويشـرح ذلـك قـائلا: «مـا نكتبـه ومـا نوثّقـه ومـا نتحـدث بـه هـو شـكل مـن أشـكال المقاومـة ضـد الاحـتلال، أعلـم أننـي أبلـغ مـن العمـر 22 عامًـا فقـط، لكننـي مسـتعد للتضحيـة حتـى آخـر نفـس». وبهـذا الحـس المسـؤول تجـاه الإنسـانية - الـذي يغيـب بشـكل كبيـر في تغطيـة وسـائل الإعلام الغربيـة - سـتظل أحلامـه وتطلعاتـه كصحفـي رياضـي في المقـام الثانـي دومـا: «حتـى لـو أصبحـتُ مـراسلا رياضيًـا، فإننـي سـأكون حاضـرًا كلمـا احتاجتنـي غـزة؛ سـأترك أي شـيء، وسـأتخلى عـن كل شـيء مـن أجـل وطنـي، مـن أجـل فلسـطين».

بهـذا المعنـى، تتجـاوز الصحافـة الفلسـطينية حـدود مـا يمكـن أن تعنيـه الصحافـة إذا كان هدفهـا


كتب الصحفي حسام شبات في تمهيد سبق مقتله على يد قوات الاحتلال في 25 مارس/آذار 2025: «على مدى الثمانية عشر شهرًا الماضية، كرّستُ كل لحظة من حياتي لشعبي. وثّقتُ الفظائع في شمال غزة دقيقةً بدقيقة، مصممًا على أن أظهر للعالم الحقيقة التي حاولوا طمسها» (وسائل التواصل الاجتماعي).

الأساس هو الهيمنة، كما أنها تمثل أنقى وأخطر أشكال الصحافة كما جسّدت ذلك رسالةُ الوداع المفجعة التي كتبها حسام شبات «خاطرتُ بكل شيء من أجل نقل الحقيقة».

> في ظل غياب الصحفيين الذين تُنسب إليهم «الاحترافية المهنية»، تحوّل الكثير من الشباب الفلسطينيين بفعل شهادتهم على هذه الحرب إلى صحفيين. هكذا أصبحنا نعتمد على عدد كبير منهم لمتابعة التحديثات اليومية، كما برز بعضهم واكتسبوا شهرة خاصة وحضورًا كبيرًا، ممّن أرسوا نمطًا من السرد الصحفي الذي يتسم بالعمق العاطفي غير المحايد.

تحدي حياد الإعلام الغربي

في أغسطس/آب 2017 كتبت كريستيان أمانبور مذيعة شبكة سي أن أن: «علينا دائمًا أن نكون صادقين، لا محايدين» كما أضافت: «لقد تعلّمتُ من حرب البوسنة ألّا أقع في فخّ المساواة الأخلاقية الزائفة.» (9) ومع ذلك، وفي تظاهر فاضح بالحياد، فإن وسائل الإعلام الغربية ضبطت ساعة الرواية على السابع من أكتوبر. فبعد سبعة عشر شهرًا، لا تزال سي أن أن نفسها تصف «الحرب على حماس في غزة» بأنها «ردّ على هجمات 7 أكتوبر». وفي المقالات التي توثق جرائم الحرب الإسرائيلية الأخيرة والانتهاكات المتكررة لاتفاق وقف إطلاق النار، لا تغفل هيئة الإذاعة البريطانية عن الإشارة دائمًا إلى أن «هجوم حماس في أكتوبر 2023 أسفر عن مقتل نحو 1200 شخص».
أما في صحيفة التايمز - وفقًا لتحقيق نشره موقع Declassified UK للصحفي حمزة يوسف - فقد تم تغيير عبارات مثل «منذ أكتوبر 2023» لتُصبح «منذ هجمات حماس». (10)

هذا النوع من السرد هو محاولة مستمرة لصياغة «مساواة أخلاقية زائفة» بين هجوم حماس والإبادة الجماعية التي تنفّذها إسرائيل، وبين مقتل 1,139 إسرائيليًا ومقتل ما لا يقل عن 60 ألف فلسطيني، وبين يوم واحد من العنف و76 عامًا من الاحتلال.
وقد أدى هذا التزييف في معادلة السرد إلى انحياز صريح دون جهد، لا سيما من قِبل الوسيلة البريطانية التي تشتهر بشعارها: «الالتزام بتحقيق الحياد الواجب في جميع موادها الإعلامية». (11)
كما صرح أحد صحفيي BBC لموقع Declassified UK: «رغم انعدام التناسب في هذا الصراع، كان محررو البرامج يصرّون على ‹موازنة› الأصوات الفلسطينية بنظيرتها الإسرائيلية» (12) ويتساءل أبو بكر عابد حول ذلك: «ما دور الموضوعية في هذا السياق بالذات؛ في سياق الإبادة؟ ما معنى الموضوعية حين أرى الأطفال ممزّقي الأوصال أمام عينيّ؟ ما هي إن لم تكن مجرد تبرير للعنف؟».

وفي حالة جديدة من الانحياز المتخفي في ثوب الموضوعية، قامت هيئة الإذاعة البريطانية بسحب فيلم وثائقي بعنوان «غزة: كيف تنجو في منطقة حرب»، وذلك بعد موجة انتقادات تتعلق بوالد الراوي، الذي شغل منصب نائب وزير الزراعة في حكومة حماس.
أما الراوي نفسه، الطفل عبد الله اليازوري، البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، فقد عبّر في حديثه مع موقع «ميدل إيست آي» عن خيبة أمله العميقة من القرار، قائلًا: «عملت على هذا الفيلم الوثائقي لأكثر من تسعة أشهر، فقط ليُحمى ويُحذف بهذه البساطة. واكتشفت قرار سحبه من الأخبار التي كانت تُتداول حوله. ولا، ولم أتلقَ أي اعتذار من بي بي سي».

وفي سياق مماثل، أشارت إليه الصحفية السابقة في الهيئة البريطانية كاريشما باتيل، في مقال يتحدث عن قرار استقالتها؛ كتبت تقول: «تفشل الموضوعية عندما تصبح وسيلتها الأساسية هي الموازنة المستمرة بين «طرفي» القصة وكأن كليهما على القدر ذاته من الصدق. المؤسسة الإعلامية التي ترفض الوصول إلى حقائق واضحة، تتحوّل إلى أداة في حرب المعلومات، حيث يُغرق أصحاب النيات السيئة منصات التواصل بادعاءات لا أساس لها، فيسقط الجميع في «ضباب» ما بعد الحقيقة. في مثل هذه السياقات تظل الحقائق المستندة إلى الأدلة وحدها هي القادرة على تبديد هذا الضباب». (13)

الصحفيون الناشطون: دروس من فلسطين

يرى الصحفي البريطاني الفلسطيني حمزة يوسف أن «محاولة تحقيق توازن مصطنع أو ادّعاء الحياد في وجه الظلم، هو شكل من أشكال التواطؤ.» وردًا على هذا التواطؤ، يدفع الصحفيون المستقلون والمواطنون الصحفيون باتجاه إعادة تصوّر الدور الصحفي. ومن خلال

تحـدي الروايـة المؤسسـية، وكشـف الانحيـاز، وإعلاء أصـوات غـزة فإنهـم يقـودون تحـولا في المهنـة يجعـل مـن الشـهادة على الإبـادة مهمـة أساسـية لا تقبـل المسـاومة.

هـذا الدمـج بيـن الصحافة والناشـطية - بوصفهـا سياسـة أو سـلوكا - يهـدف إلـى إحـداث تغييـر اجتماعـي وسياسـي يشـجع على القيـام بإعـادة تصـور جوهـري للـدور الصحفـي؛ بحيـث لا تُشـوَّه الحقيقـة، ولا يُكافـأ الانحيـاز ماليًـا أو سياسـيًا. ويقـول يوسـف: «لا بـد مـن إدماج الناشـطية في العمـل الصحفـي، واسـتخدام العزيمـة الأخلاقيـة والإمكانيـات المهنيـة لكشـف وتفكيـك الأنظمـة التـي تُنتـج القمـع. ولا بـد أن يكـون العمـل الصحفـي مدفوعًـا ببصيـرة أخلاقيـة».

> هذا النوع من السرد هو محاولة مستمرة لصياغة «مساواة أخلاقية زائفة» بين هجوم حماس والإبادة الجماعية التي تنفّذها إسرائيل، وبين مقتل 1,139 إسرائيليًا ومقتل ما لا يقل عن 60 ألف فلسطيني، وبين يوم واحد من العنف و76 عامًا من الاحتلال.

ويوافقـه الـرأيَّ الصحفـيُّ والناشـط أحمـد شـهاب الديـن الـذي يـرى أن العمـل بصفـة الصحفـيّ وصفـة الناشـط معـا لا يتعارضـان بالضـرورة، ويتسـاءل: «مـن يرغـب فـي روايـة القصـص دون أن يغيّـر شـيئًا؟». (14) ورغـم أن شـهاب الديـن راكـم خبـرة مهنيـة في العمـل في بعـض مـن أعـرق المؤسسـات الإخباريـة فيً العالم - مـن بينهـا هيئـة الإذاعـة البريطانية وصحيفـة نيويـورك تايمـز، وعمـل أسـتاذًا مسـاعدًا في كليـة الصحافـة بجامعـة كولومبيـا، ويعـدّ صحفيًـا متمرسًـا وفقًـا للمعاييـر المؤسسـية السـائدة - إلا أنّـه يـرى أنّ مجـرد روايـة قصـص تُقـر بواقـع تجاهـل النخـب الإعلاميـة المنهجـي والمتعمَّـد للإبـادة الجماعيـة يعـد فـعلا مـن أفعـال التحـدي والخـروج عـن المألوف. ويسـتحضر شـهاب الديـن مـا قيـل لـه أثنـاء مشـاركته في نـدوة عـام 2012 حـول الربيـع العربـي: «أنـت لسـت صحفيًـا، بـل ناشـط». (15) وكأن الدوريـن لا يمكـن أن يجتمعـا. ويضيـف: «بالنظـر إلـى عـدد الأوصـاف التـي أطلقـت علـيّ في حياتـي، أجـد أنـه مـن المثيـر للاهتمـام أن يُقـال عنـي ناشـط؛ لأنهـا قيلـت بنيـة الإهانـة، لكنهـا في الحقيقـة كانـت مديحًـا، وأنـا بـكل صراحـة فخـور بهـا، ولا يمكـن إلا أن أكـون كذلـك».

وبالنسـبة لأحمـد شـهاب الديـن وغيـره مـن الصحفييـن الفلسـطينيين في الشـتات، فـإن العلاقـة بيـن الهويـة والتجربـة لا يمكـن نفيهـا. وفي ثقافـة إعلاميـة تُعـدّ فيهـا الموضوعيـة المعيـار النظـري للمهنيّة، فـإن هـذا قـد يـؤدي إلـى حصرهـم في قوالـب نمطيـة تُسـتخدم غالبًـا للتشـكيك في مصداقيتهـم بدعـوى أنهـم «ناشـطون» لا يملكـون سـلطة صحفيـة. لكـن حين تصبـح الموضوعية غطـاءً زائفًـا لانحيـاز مؤسسـي، فـإن ما يُوصـم بأنـه «عمـلُ ناشـطين» هـو مـا يتيـح للصحفييـن التحقيق في الظلـم، ومواجهـة التحيـزات، وكشـف الحقيقـة حيـن تتخلـى المؤسسـات الصحفيـة السـائدة عـن القيـام بذلـك.

أما بالنسـبة للصحفيين في فلسـطين وخاصـة فـي غـزة - حيـث يكـون توثيـق الشـهادة لما يجري في حـرب الإبـادة مسـؤولية وطنيـة، وضـرورة لتحفيـز التحـرك الدولـي - فـإن هـذا الرابـط بيـن الهويـة والتجربـة لا يمكن أن يكـون أشـدّ تـداخلا منـه في هـذه الحالـة؛ وذلـك لأنّ هـؤلاء الصحفييـن كمـا يؤكّـد أبـو بكـر عابـد يكونـون بحـق «جـزءًا مـن الحـدث».


بالنسبة للصحفيين في فلسطين وخاصة في غزة - حيث يكون توثيق الشهادة لما يجري في حرب الإبادة مسؤولية وطنية، وهذا الرابط بين الهوية والتجربة لا يمكن أن يكون أشدّ تداخلاً منه في هذه الحالة (تصوير: أنس فتيحة - غيتي).

المراجع

(1) Sky News. "Open Letter Published from News Organisations Calls for Access to Gaza." c Sky News, July 11, 2024. https://news.sky.com/story/open-letter-published-from-news-organisations-calls-for-access-to-gaza-13176605.
(2) CNN. X (formerly Twitter), October 11, 2023. https://x.com/CNN/status/1712132220809298163. (Content no longer available).
(3) https://www.nytimes.com/2023/12/28/world/middleeast/oct-7-attacks-hamas-israel-sexual-violence.html
(4) Mulla, Imran. "BBC Slammed for Pulling Film That Humanised Palestinian Children." Middle East Eye, February 21, 2025. https://www.middleeasteye.net/news/bbc-slammed-pulling-film-humanised-palestinian-children.
(5) Doyle, Chris. "Palestinian Journalists Deserve International Protection." Arab News, December 2, 2024. https://www.caabu.org/news/article/palestinian-journalists-deserve-international-protection-article-chris-doyle.
(6) Shabat, Hossam. "This is Hossam's team, and we are sharing his final message: 'If you're reading this, it means I have been killed…'" X (formerly Twitter), March 24, 2025, 8:12 p.m. https://x.com/HossamShabat/status/1904219854183313461.
(7) المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان. «في رسالة لوزراء خارجية الاتحاد الأوروبي.. الأورومتوسطي يدعو لتحرك عاجل لوقف الإبادة الجماعية في غزة.» 20 أبريل 2025. https://euromedmonitor.org/ar/article/6690.
(8) International Committee of the Red Cross (ICRC). "Article 79: Measures of Protection for Journalists." Protocol Additional to the Geneva Conventions of 12 August 1949 (Protocol I), June 8, 1977. https://ihl-databases.icrc.org/pt/ihl-treaties/api-1977/article-79.
(9) Amanpour, Christiane. "We must always be truthful, not neutral. I learned from the Bosnia war never to draw false moral equivalence." X (formerly Twitter), August 18, 2017, 5:23 p.m. https://x.com/amanpour/status/898551020242046976.
(10) Yusuf, Hamza. "'Battle for the Truth': Pro-Israel Bias inside UK Newsrooms Revealed." Declassified UK, February 20, 2025. https://www.declassifieduk.org/battle-for-the-truth-pro-israel-bias-inside-uk-newsrooms-revealed/.
(11) BBC. "Editorial Guidelines – Section 4: Impartiality – Introduction." BBC Editorial Guidelines. https://www.bbc.co.uk/editorialguidelines/guidelines/impartiality/.
(12) Yusuf, Hamza. "'Battle for the Truth': Pro-Israel Bias inside UK Newsrooms Revealed." Declassified UK, February 20, 2025. https://www.declassifieduk.org/battle-for-the-truth-pro-israel-bias-inside-uk-newsrooms-revealed/.
(13) Patel, Karishma. "I'm a Former BBC Newsreader – Gaza Is the Reason I Resigned." The Independent. March 5, 2025. https://www.independent.co.uk/voices/bbc-gaza-documentary-tim-davie-israel-b2708547.html.
(14) Luca's Insight Track. "When Does a Journalist Become an Activist?" YouTube Shorts. February 25, 2025. https://www.youtube.com/shorts/LVMZgqRRB3Y.
(15) Shihab Eldin, Ahmed. "Design Activism in a Meaningful Way." What Design Can Do. 2018. https://www.whatdesigncando.com/talks/design-activism-in-a-meaningful-way-ahmed-shihab-eldin/.

أن تحكي قصص الأطفال من غزة!

ريما القطاوي

تبدو تجربة الصحفية الفلسطينية ريما القطاوي مختلفة تماما في الاشتغال على القصص الإنسانية. في معهد الأمل بغزة التقت أطفال يعيشون ظروفا قاسية بعد فقدان عائلاتهم، ولم تخل التجربة من تحديات مهنية وأخلاقية. أين ينتهي التعاطف وأين تبدأ المهنة؟ وكيف يمكن التعامل مع الأطفال، وهل مقبول من الناحية الأخلاقية إجراء المقابلات معهم؟

حين جلست أمام يوسف؛ الطفل يوسف عامر جندية، الناجي الوحيد من عائلته التي قضت في مجزرة 13 أكتوبر 2023، في معهد الأمل بغزة، شعرتُ بأنني أمام طفل لم يخرج بعد من دوامة الصدمة: عينان تائهتان، وصوت خافت كما لو كان يحكي فصول الألم دون أن يدرك تمامًا حجم الكارثة التي مرت فوق رأسه الصغير. كنت أعرف أنني في مواجهة لحظة حساسة جدًا، لا يمكن أن تُختصر في إجراء مقابلة صحفية مجردة مع طفل صغير لا يزال تحت وطأة الصدمة. في كل سؤال كنت أحاول طرحه على يوسف، حاولت ألا ألمس وجعه أو أزيد من ألمه، بينما كانت مشاعر الخوف تلاحقني طوال الوقت خشية تجاوز حدود ما يستطيع تحمله. كان كل جزء في المقابلة يشكل تحديًا نفسيا لي: كيف أقدم له مساحة للتعبير دون أن أضغط عليه؟ كيف أوازن بين ما يفرضه دوري أنا الصحفية وبين رغبتي في حمايته من أوجاعه التي لم تلتئم بعد؟ وهل من الأخلاقي إجراء المقابلة أصلا؟ والحقيقة أنها لم تكن مجرد أسئلة وأجوبة، بل صراعًا داخليًا مستمرًا بين المهنية والعاطفة.

توازن صعب

38 ألف طفل يتيم و14 ألف أرملة أصبح مصيرهم في غياهب المجهول إثر جرائم متتالية يرتكبها الاحتلال الإسرائيلي منذ 7 أكتوبر/تشرين الأول 2023 في قطاع غزة. لم يكن هؤلاء مجرد أرقام، بل قصصا حتّمت عليّ بصفتي صحفية مستقلة توثيقها خاصةً في معهد الأمل بغزة.

كانت هذه القناعة تدفعني للكتابة، ليس فقط من باب الواجب المهني، بل لأنها التزام أخلاقي وإنساني، لأن قصصهم جديرة بالبقاء. في كل مرة جلست فيها مع طفل فقدَ والديه استحضرت كلمات الدكتور الشهيد رفعت العرعير:»إن كان لا بد من أن أموت، فعليك أن تعيش أنت لتروي حكايتي».

واليوم، في غزة، نحمل على عاتقنا مسؤولية نقل هذه الأمانة، نحن جيلها وشهودها وضحاياها. نسرد للعالم حكاية هؤلاء الأطفال، لتظل أصواتهم شاهدة على الحقيقة، وعلى صمود شعب لم تنكسر روحه رغم كل شيء.

فالصحافة، في جوهرها، ليست مجرد أداة لنقل الحدث، بل وسيلة لإعادة الاعتبار للضحايا، وتوثيق الألم والأمل معًا في عالم يزدحم بالأخبار، لكنه غالبًا ما يغفل عن الجانب الإنساني للأحداث. وفي هذا السياق، تبرز القصة الصحفية الإنسانية باعتبارها أهم الفنون الصحفية التي تتيح تجاوز حدود الخبر التقليدي، وتعتمد على السرد الإنساني العميق الذي يمكّن القارئ من فهم الواقع بصورة أكثر شمولية.

> **على المستوى الإنساني، كان التعامل مع الأطفال يتطلب حساسية خاصة؛ فهم ليسوا مجرد مصادر صحفية، بل أرواح تحمل قصصًا تستحق أن تُروى بكرامة واحترام. لذا، كان لا بد من بناء علاقة قائمة على الثقة، مع الحرص على حمايتهم من أي ضرر نفسي قد ينجم عن المقابلات أو السرد الصحفي.**

كانت تجربتي في تغطية قصص الأطفال في معهد الأمل للأيتام زاخرة بالمعرفة وكذلك التحديات؛ حيث تطلبت توازناً دقيقاً بين المصداقية المهنية والالتزام بالمعايير الأخلاقية للصحافة الإنسانية.

أدركت أن الصحفي يتقاطع مع آلام شعبه ويعيش تفاصيلها. لذلك من الضروري أن يقدّم سردا مؤثرا وموضوعيا دون الوقوع في فخ الإثارة العاطفية أو التوظيف غير الأخلاقي لعناصر القصص التي يغطيها؛ فالمسؤولية الصحفية تفرض تقديم صورة واقعية دون مبالغة، مع الالتزام بمعايير النزاهة والدقة.

على المستوى الإنساني، كان التعامل مع الأطفال يتطلب حساسية خاصة؛ فهم ليسوا مجرد مصادر صحفية، بل أرواح تحمل قصصًا تستحق أن تُروى بكرامة واحترام. لذا، كان لا بد من بناء علاقة قائمة على الثقة، مع الحرص على حمايتهم من أي ضرر نفسي قد ينجم عن المقابلات أو السرد الصحفي.

لم يكن الأمر سهلًا، فقد واجهت تحديات نفسية أيضًا؛ ذلك أن بعض القصص كنت بحاجة لاستيعابها أولا ثم الكتابة عنها، وهذا كان يتطلب وقتًا إضافيًا. لم يكن هدفي فقط تسليط الضوء على معاناتهم، بل منحهم الفرصة ليكونوا هم الرواة الحقيقيين؛ ينقلون أحلامهم ومخاوفهم وتفاصيل حياتهم التي تعكس أبعادًا إنسانية تتجاوز حدود الأسماء والصور.

تكمن أهمية القصة الصحفية الإنسانية في قدرتها على خلق وعي مجتمعي حول قضايا الأطفال الأيتام؛ لأنها لا تقتصر على سرد المعلومات فقط، بل تضع القارئ

في قلب الحدث؛ ليعزز ذلك فهمه وتعاطفه مع الشخصيات التي تتناولها القصة. القصة الصحفية ليست انعكاسًا للواقع فحسب، بل جسرٌ يمتد بين من يعيشون المعاناة ومن يقرؤون عنها؛ ليشعروا بها ويدركوا أبعادها، وربما يتحركون لأجلها.

هذه التجربة تجاوزت كونها إضافة إلى خبرتي الصحفية؛ فقد غيرت نظرتي إلى الحياة، تعلمت أن الصحافة ليست مجرد نقل للحدث، بل هي وسيلة لفهم الإنسان خلف الخبر. رأيت في عيون الأطفال شغفًا بالحياة رغم قسوة الظروف، وأدركت أن لكل طفل قصة تستحق أن تُروى بطريقة تحترم تفاصيلها وتعكس حقيقتها.

> **هذه التجربة تجاوزت كونها إضافة إلى خبرتي الصحفية؛ فقد غيرت نظرتي إلى الحياة، تعلمت أن الصحافة ليست مجرد نقل للحدث، بل هي وسيلة لفهم الإنسان خلف الخبر. رأيت في عيون الأطفال شغفًا بالحياة رغم قسوة الظروف، وأدركت أن لكل طفل قصة تستحق أن تُروى بطريقة تحترم تفاصيلها وتعكس حقيقتها.**

قصص إنسانية

لم تقتصر تغطيتي على إبراز معاناة الأطفال فقط، بل سلطت الضوء على أحلامهم وطموحاتهم، لا سيما في مجال التعليم وسط الوضع الراهن في غزة؛ فالتعليم في المعهد يركز على المرحلة الثانوية «التوجيهي» لأهميتها الخاصة في حياة الطلاب. ومع ذلك، يواجه الطلاب تحديات كبيرة، بدءًا من نقص الأساسيات مثل: الكراسي والفصول الدراسية والقرطاسية، ووصولاً إلى ضيق المساحة وندرة الورق، إضافة إلى التكلفة الباهظة للطباعة وغياب التقويم السنوي للتعليم. ورغم هذه العقبات، يصرّ الطلاب على الحضور يوميًا، حاملين كراسيهم من مسافات بعيدة لاستكمال دراستهم.

أتذكر دائمًا المشرفة التربوية الأستاذة سلوى حلس، التي ألهمتني بعبارة «ما في أصعب من أن تربي طفلة لمدة 10 سنوات وفجأة تستشهد هي وأخوتها. هذا الشيء كفيل يخليك أحن مع الأطفال، وتعملي حسابَ الكلمة مع الطفل قبل ما تتكلمي» هذه الكلمات كانت تذكيرا قويا لي بأهمية العناية بالكلمات في التعامل مع الأطفال.

من بين الذين تركوا في نفسي أثراً عميقًا، تلميذة ذات 16عامًا، فقدت كل أفراد عائلتها في الحرب، لتظل الناجية الوحيدة. ورغم الإصابات البليغة التي تعرضت لها، تمكنت من حفظ القرآن الكريم كاملاً خلال تلك الفترة، وقد تبنّى المعهد حالتها بمتابعة خاصة مع أخصائية نفسية؛ لمساعدتها على تخطي محنتها وتأمين بيئة تعليمية وداعمة لها، ليس فقط على المستوى الأكاديمي بل النفسي أيضًا. هذه الطالبة تمثل نموذجًا للصمود؛ حيث إن التعليم بالنسبة لها كان وسيلة للبقاء والتعافي وسط الظروف القاسية التي عاشتها.

خلال تغطيتي الميدانية للمأساة الإنسانية، شعرت بثقل المسؤولية التي لا يمكن تجاهلها بصفتي صحفية مستقلة. كان اللقاء مع الطفل يوسف عامر جندية، الناجي الوحيد من عائلته التي قضت في مجزرة 13 أكتوبر 2023، لحظة لا يمكن أن تمحى من ذاكرتي. يوسف البالغ من العمر 11 عامًا فَقَدَ والده والدته وخمس شقيقات في تلك اللحظة المروعة. منذ بداية الحرب، كان يقيم في المعهد، واليومَ بعدَ رحلة علاج طويلة في مستشفى الشفاء، يحاول أن يستعيد شيئًا من حياته الطبيعية ويستكمل دراسته.

لم يغب عن ذهني أبدًا دور التعليم في حياة يوسف رغم معاناته. سألت إدارة المعهد عن كيفية متابعة دراسته في ظل حالته النفسية؛ لأعرف أن المعهد يوفر خيمًا تعليمية للأطفال النازحين، وأن يوسف يظهر حرصًا كبيرًا على مواصلة تعليمه؛ فلا يتغيب عن أي حصة دراسية. كان التزامه بالعلم رسالة أمل وسط هذا الخراب.

أثناء حديثي مع يوسف سألته بلطف:

«لو في شي نفسك يرجع متل ما كان قبل الحرب، شو هو»؟

ساد صمت طويل. نظر يوسف بعيدًا ثم أجاب:

«يرجع بابا وماما وخواتي كلهم...»

توقف قليلاً، أخذ نفسًا عميقًا وأضاف:

«...وترجع المدرسة».

ثم نظر إليّ مرة أخرى:

«...بدي أصير متل بابا، طبيب».

اليوم، تتكفل مدرسة دار الأرقم بتعليم يوسف، بالإضافة إلى إشراف المعهد على حالته النفسية ورعايته الكاملة، من خلال برامج دعم نفسي وإرشاد تربوي. ورغم



الصحافة، في جوهرها، ليست مجرد أداة لنقل الحدث، بل وسيلة لإعادة الاعتبار للضحايا، وتوثيق الألم والأمل معًا في عالم يزدحم بالأخبار، لكنه غالبًا ما يغفل عن الجانب الإنساني للأحداث (تصوير: عبد الحكيم أبو رياش - غيتي).

كل الألـم، مـا زال هنـاك أمـل وأحلام كبيـرة لطفـل لـم يتجـاوز بعـد صدمـة الفقـدان، ولكنـه يسـعى بثبـات لاسـتعادة جـزء مـن حياتـه التـي فقدهـا.

> **أمام كل كتابة صحفية، أجد نفسي في حيرة عميقة: كيف يمكنني أن أصف ما لا يُوصف؟! كيف يمكنني أن أقول ما لا يُقال عن أطفال فقدوا كل شيء؟! هذا يضعني في صراع داخلي مستمر بين المهنية والعاطفة، وأمامَ قدرة اللغة على التعبير عن واقع يفوق حدود الكلمات.**

وفي المعهـد نفسـه، حيـث يتلقـى يوسـف الدعـم والرعايـة، كانـت إسلام عاطـف جنديـة، 25 عامًـا، أرملـة وأمّ لثلاثـة أطفـال، انتقلـت إليـه بعـد أن فقـدت زوجهـا ووالـده في هجـوم صاروخـي على الحرازيـن-الشـجاعية. تقـول إسلام: «كنـت في منطقـة الحرازيـن بالشـجاعية عندمـا اسـتهدفتنا صواريـخ متتاليـة. كان زوجـي ووالـده معنـا، واستشـهدا على الفـور في تلـك اللحظـات المروعـة. بعـد تلـك التجربـة القاسـية، انتقلـت أنـا وأطفالـي إلـى معهـد الأمـل للأيتـام بتاريـخ 17 فبراير 2024. لكـن حتـى في المعهـد، لـم نكـن في مأمـن؛ إذ تعرضـت أجـزاء مـن مبانـي المعهـد للقصـف بينمـا كنـا موجودين هنـاك، فـزاد هـذا مـن صعوبـة الوضـع الـذي كنـا نعيشـه».

سـألتها: مـا هـي التحديـات التـي تواجهينهـا في غيـاب زوجـك؟ وكيـف تتعامليـن مـع أطفالـك لتوفيـر جـو آمـن لهـم؟

أجابـت إسلام: كل شـيء صعـب. لا يوجـد شـيء يمكـن أن يعـوض غيـاب الأب. كثيـرًا مـا يسـألني أولادي، خاصـة طفلتـي ذات السـنوات الثلاثـة والتوءم اللذيـن يبلغـان سـت سـنوات: ماما، ويـن بابا؟ فأجيبهـم: بابا في الجنـة. الحمـل كبيـر، ولهـذا قـررت اسـتكمال دراسـتي الثانويـة (التوجيهـي) في المعهـد، حتـى أتمكـن مـن توفيـر حيـاة أفضـل لأطفالـي.

سألتهـا: هـل تشـعرين أنـك سـتتجاوزين هـذه المرحلـة؟ أجابـت إسلام: «آه، لازم أتجاوزهـا. مـا في خيـار ثالـث. الكهربـا مـش متوفـرة دائمًـا، بالإضافـة لالتزامـات الأطفال وتربيتهـم. المسـؤولية كبيـرة. لكـن رح أبقـى أحـاول؛ لأنـه التعليـم للبنـت قـوة».

أمام كل كتابـة صحفيـة، أجـد نفسـي في حيـرة عميقـة: كيـف يمكننـي أن أصـف مـا لا يُوصـف؟! كيـف يمكننـي أن أقـول مـا لا يُقـال عـن أطفـال فقـدوا كل شـيء؟! هـذا يضعنـي في صراع داخلـي مسـتمر بيـن المهنيـة والعاطفـة، وأمـامَ قـدرة اللغـة على التعبيـر عـن واقـع يفـوق حـدود الكلمـات.

إن تغطيـة القصـص الصحفيـة الإنسـانية للأطفـال الأيتـام في معهـد الأمـل بغـزة لـم تكـن مجـرد تجربـة مهنيـة فحسـب، بـل كانـت رحلـة إنسـانية أثْـرت رؤيتـي لـدور الصحافـة في خدمـة القضايـا المجتمعيـة.



يواجه الطلاب تحدياتٍ كبيرة، بدءًا من نقص الأساسيات مثل: الكراسي والفصول الدراسية والقرطاسية، ووصولاً إلى ضيق المساحة وندرة الورق، إضافة إلى التكلفة الباهظة للطباعة وغياب التقويم السنوي للتعليم (تصوير: محمود أبو حمدة - غيتي).

كيف يصوغ الإعلام الغربي كارثة المجاعة في قطاع غزة؟

فداء القدرة

هل يمكن لوسائل الإعلام أن تخضع موضوع المجاعة في فلسطين للتوازن المهني حتى بعد إقرار المنظمات الأممية ومحكمة العدل الدولية بذلك؟ لماذا تفادت الكثير من وسائل الإعلام الغربية توصيفات قانونية وأخلاقية دقيقة، مثل «مجاعة» (famine) أو «تجويع» (starvation) ولجأت إلى تعابير فضفاضة مثل «نفاد الغذاء» أو «أزمة تغذية؟ ألا تنطوي هذه الممارسة على تحيز واضح لصالح الرواية الإسرائيلية وتبرير لسياسة «التجويع الممنهجة»؟

منذ اندلاع الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة في أكتوبر 2023 يعيش أكثر من مليوني فلسطيني تحت وطأة ظروف إنسانية كارثية غير مسبوقة؛ الحصار الإسرائيلي المستمر والتدمير الشامل للبنية التحتية والعرقلة الممنهجة لإدخال أبسط المساعدات الإنسانية العاجلة، إلى جانب استمرار القصف والعمليات العسكرية، كل ذلك خلق أزمة إنسانية وصفتها الأمم المتحدة ومنظمات دولية بأنها تشكّل «مجاعة جماعية»، متهمة إسرائيل بفرض ظروف «تجويع» متعمّد لسكان القطاع بهدف الدفع إلى تهجيرهم وتوسيع «بيئة الإبادة الجماعية» في القطاع.

ففي مطلع تموز/يوليو العام الماضي، أعلنت مجموعة من الخبراء المستقلين في الأمم المتحدة في بيان صحفي (1) أن إسرائيل تشنّ «حملة تجويع متعمّدة ومحدّدة الهدف» وأنّ ذلك «شكل من أشكال عنف الإبادة الجماعية». كما أوضح البيان أن تزايد حالات الوفاة بين الأطفال الفلسطينيين بسبب الجوع وسوء التغذية «لا يترك أي مجال للشكّ في أنّ المجاعة قد تفشّت في جميع أنحاء قطاع غزّة».

إلا أن شبح المجاعة كان قد خيّم على سكّان غزّة بعد أشهر معدودة فقط من بدء الحرب إبان السابع من أكتوبر؛ ففي الدعوى التي أقامتها جنوب أفريقيا أمام محكمة العدل الدولية ضد إسرائيل ثمة بنود في نص الدعوى (2) توضّح كيف دفعت إسرائيل القطاع بأكمله إلى «حافّة المجاعة»، كما تتواتر في الدعوى شهادات خبراء ووكالات دولية بشأن خطر الجوع هناك وارتفاع مستوياته، حتى في ما كان يسمّى «المناطق الآمنة».

أما مؤسسة «آي بي سي» (IPC) التي تعدّ الجهة المعتمدة دوليًا في تصنيف مستويات الأمن الغذائي فقد أعلنت في تقريرها الصادر في 18 آذار/مارس 2024 عن تفعيل لجنة مراجعة «المجاعة» في المؤسسة للنظر في الظروف الغذائية المتدهورة وذلك بالنظر إلى شدة الأدلة المتوفّرة، كما أكّدت المؤسسة في تقريرها (3) أن نتائج مراجعة اللجنة تشير إلى أن المجاعة في ذلك الحين (أي في الربع الأول من العام الماضي) «متوقعة ووشيكة في محافظتي شمال غزة وغزة، ومن المرجّح أن تنكشف بشكل فعلي في الفترة ما بين منتصف آذار/مارس 2024 وآذار/مايو 2024.» كما عادت المؤسسة وأكدت في آخر تقرير لها في 12 أيار/مايو 2025، أن «سكان غزة بأكملهم يواجهون خطرًا حرجًا يتمثل في المجاعة» وذلك بحسب ما نقلته عنها وكالة رويترز. (4)

وعليه، فإن المؤشرات على هذه الكارثة واضحة وموثقة موضوعيًا في عدد من التقارير المستقلة والمعتبرة المعترف بها، ورغم ذلك فإن جزءًا من التغطية الإعلامية الغربية ظلت - في كثير من الأحيان - متحفّظة في بيان هذا الجانب من المأساة التي يعاينها الناس جميعًا اليوم في غزّة، مع تجنّب استخدام مصطلح «مجاعة» رغم توفر شروطه القانونية والإنسانية.

ولعل هذا الانحياز المهني يتجلى بشكل خاص في التناول المحدود في وسائل إعلام غربية لسياسة التجويع التي تمارسها إسرائيل وتتبناها علنًا وبشكل ممنهج، مع أنّ ذلك يشكّل جريمة حرب وجرائم ضدّ الإنسانية بحسب تقارير عديدة مبكّرة؛ كان من أبرزها تقرير هيومان رايتس ووتش (5) «إسرائيل: استخدام التجويع كسلاح حرب في غزّة» الذي صدر في 18 ديسمبر/كانون أول 2023.

«مجاعة» أم «أزمة جوع»؟

يعد انتقاء المفردات والمصطلحات أحد أبرز أنماط التحيّز الإعلامي، خصوصًا في السياقات التي تتقاطع فيها الكوارث الإنسانية مع حسابات السياسة والاقتصاد المعقّدة. ففي الحالة الفلسطينية - كما هي في قطاع غزّة خلال هذه الحرب - تفادت معظم وسائل الإعلام الغربية الكبرى استخدام توصيفات قانونية وأخلاقية دقيقة، مثل «مجاعة» (famine) أو «تجويع» (starvation) ولجأت إلى تعابير فضفاضة مثل «نفاد الغذاء» (6) أو «أزمة تغذية» (7) وهي تعابير تحوّل وقائع موصوفة صحفيًا وقانونيًا بأنها «مجاعة» إلى مجرّد أزمات محتملة، أو في أسوأ الأحوال «مشاكل فنيّة» أو «لوجستيّة»، وهو ما يحدّ بالتالي من مدى التضامن والتعاطف مع الضحايا.

هذا التردد في التسمية ليس مجرّد مشكلة اصطلاحية أو خيارا تحريريا بين خيارات مهنية متعددة، بل إنه يحمل دلالات واضحة ضمن آلية من إعادة إنتاج الحقائق فيما يتعلق بالحرب الإسرائيلية على غزّة، ضمن نظام إعلاميّ رأسمالي ينحاز إلى المصالح الضيقة للنخب المهيمنة، ولو على حساب القيم والمعايير الصحفية الأساسية. فهذا التحفظ العامّ المرصود في وسائل إعلام غربية بشأن تسمية حالة الانهيار الكامل في الأمن الغذائي للفلسطينيين في غزّة «مجاعة»، هو محاولة أخرى ضمن أنماط التحيز والتضليل الأخرى؛ للتأثير في



الرأي العام وتوجيهه ومحاولة حصر السردية في مفردات وصياغات مبهمة يعاد إنتاجها على نحو واسع، تخفف من وقع المأساة وتنأى بالمسؤولية عن الجاني. وهكذا، يصبح التلاعب بالمصطلحات أداة لنزع الصفة الجنائية عن الجريمة، وتمييع جانب المساءلة فيها.

وعلى سبيل المثال، سلط تحقيق (8) رويترز الضوء على تردد النظام الدولي – بما في ذلك المنظمات الإنسانية الكبرى – في إعلان حالة المجاعة رسميًا في قطاع غزّة بهذا المصطلح رغم وفرة الأدلة. ويشير التقرير إلى حالة من التنسيق غير المعلن عنه، بحيث تتيح إسرائيل بين فترة وأخرى دخول قدر محدود من المساعدات، بهدف تأخير إعلان منظمة ما عن حالة المجاعة، وهو ما انعكس بدوره على الإعلام الغربي الذي يأخذ إشاراته من هذه المؤسسات.

يذكر التقرير نقلاً عن جيريمي كونيندي رئيس منظمة «اللاجئين الدولية» أن إصدار إعلان رسمي حول وجود مجاعة في غزة كان يمكن أن يمثل إشارة حاسمة على الكارثة التاريخية الجسيمة الناجمة عن العمليات العسكرية التي تنتهجها إسرائيل»؛ فكلمة «المجاعة» بحسب كونيندي «تحمل قدرًا هائلاً من القوة؛ فهي تنقل الأمر من مجرد توصيف تقني إلى حكم تاريخي» إلا أنّه حكم حاولت إسرائيل - بنجاح حتى اليوم - التنصّل منه، وقد ساعدها في ذلك الدور الذي أدّته وسائل الإعلام.

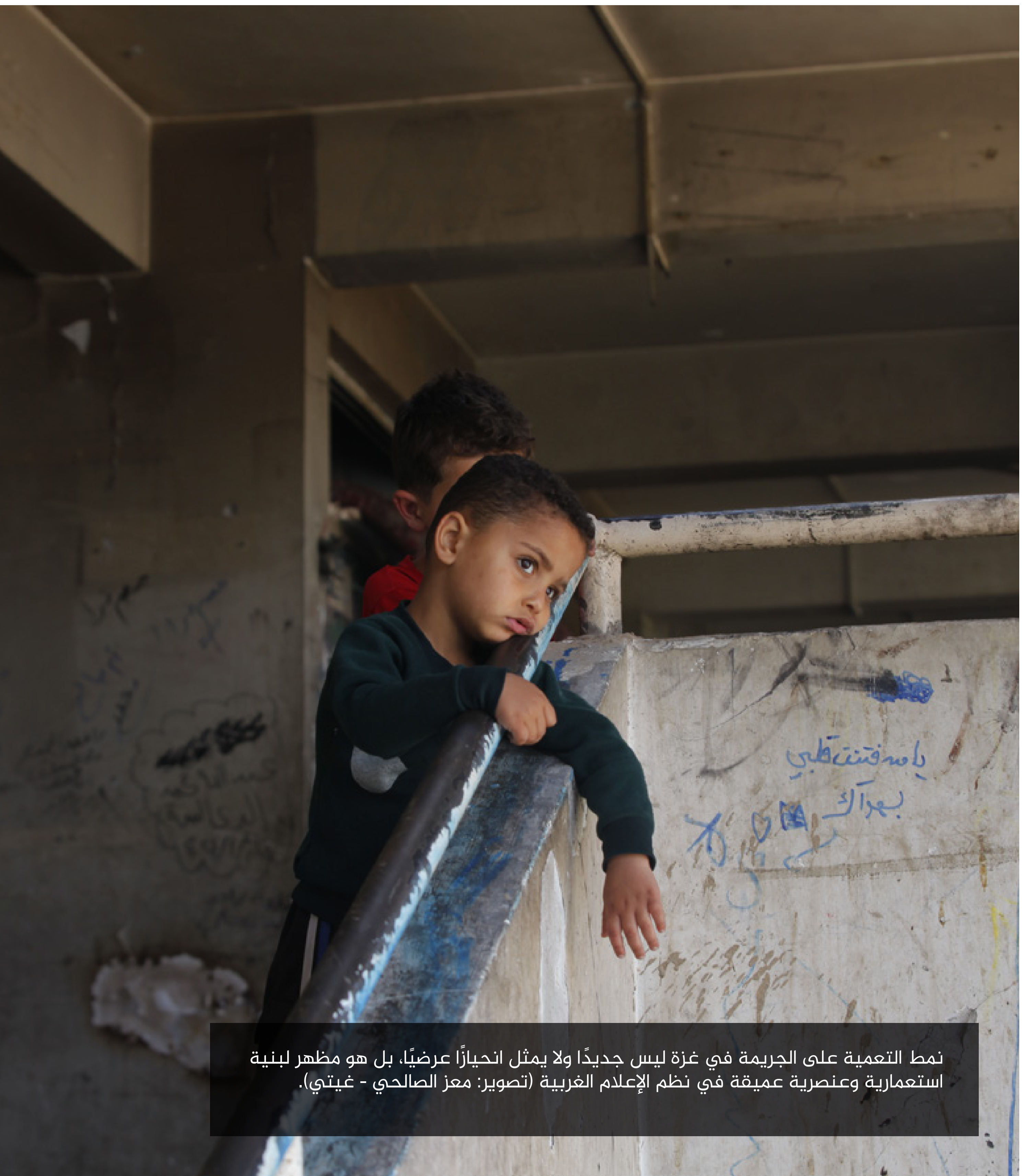
فمن المبادئ الجوهرية للعمل الصحفي تقديم وجهات النظر المختلفة باعتبار ذلك ضمانة لتعدد الأصوات وتوزان التغطية وتجنب الانحياز. غير أن هذا المبدأ على أهميته يتحول في بعض السياقات إلى وسيلة لتشويه الحقيقة، خاصة عندما يتم تطبيقها على وقائع موثقة تتعلق بجرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية؛ ففي التقارير التي سلطت الضوء على الواقع الغذائي في قطاع غزة، وفي صحف ووسائل إعلام كبرى؛ مثل شبكة سي أن أن، (9) وبي بي سي، (10) ونيويورك تايمز، (11) وغيرها، بدا الالتزام بهذا «التوازن» دالاً على خلل عميق في أخلاقيات الصحافة والعمل الإعلامي المهيمن غربيًا، بحيث يؤدي إلى تحويل قضايا - مثل استخدام الجوع سلاحا - إلى أمر قابل للنقاش الأخلاقي والتداول والتشكيك، وذلك بمجرّد تصدير رواية مضادّة من الناطق باسم الحكومة أو الجيش الإسرائيليين، تحت دعوى «التوازن» في التغطية، ومن دون قدرة في كثير من الأحيان على توجيه الأسئلة الصعبة إليهم.

ثمة استثناءات في هذا المشهد؛ كتلك الافتتاحية التي ظهرت في الغارديان (12) الرابع من مايو/أيار 2025، التي أشارت في عنوانها إلى استخدام الاحتلال الإسرائيلي للجوع كسلاح حرب في غزة، وأن المجاعة هناك ليست مجرد نتيجة عرضية للحرب، بل أداة ممنهجة لتجويع السكان.

إن هذا النمط من التعمية على الجريمة في غزة ليس جديدًا ولا يمثل انحيازًا عرضيًا، بل هو مظهر لبنية استعمارية وعنصرية عميقة في نظم الإعلام الغربية، (13) تعيد إنتاج تفاوتات القوة والهيمنة، فترى في المراسل الأجنبي أو المتحدث باسم المؤسسات الغربية المصدر الموثوق الوحيد، بينما تُهمَّش الأصوات المحلية رغم كفاءتها وتضحياتها من أجل نقل الحقيقة.



يعد انتقاء المفردات والمصطلحات أحد أبرز أنماط التحيّز الإعلامي، خصوصًا في السياقات التي تتقاطع فيها الكوارث الإنسانية مع حسابات السياسة والاقتصاد المعقّدة (تصوير: معز الصالحي - غيتي).



نمط التعمية على الجريمة في غزة ليس جديدًا ولا يمثل انحيازًا عرضيًا، بل هو مظهر لبنية استعمارية وعنصرية عميقة في نظم الإعلام الغربية (تصوير: معز الصالحي - غيتي).

هـذا الشـكل مـن التغطيـة الصحفيـة بشـأن المجاعـة في قطـاع غـزة يُفـرّغ المسـألةَ مـن بُعدهـا الإنسـاني العاجل عبـر تقديمهـا بلهجـة إدارية منزوعة مـن التجربـة الإنسـانية، وتتحـول مـع ذلـك صـور الأطفـال والشـيوخ والمرضـى الذيـن يموتـون جـراء الجـوع إلـى مجـرد أرقـام في تقارير تتضمن شـتّى أشـكال التشـكّك والتحفـظ مـع الحـرص الدائـم على عـرض الرواية الإسـرائيلية بـل حتـى تصديرها.

إن هـذا التحيّـز المنهجـي للرواية الرسـمية الإسـرائيلية لا يعكـس فقط كـسلاً صحفيًـا أو ضعفًـا في الوصول للمصـادر الفلسـطينية، بـل يعكـس أيضًـا إطـارًا معرفيًـا موروثًـا لا يـزال يحكـم تمثيـلَ الفلسـطينيِّ في الخطـاب الإعلامـي الغربـي؛ إذ يـرى الفلسـطينيين ضحايـا غيـرَ جديرين بالثقـة أو التعاطـف، ويمنـح الرواية الإسـرائيلية شـرعية تلقائيـة بوصفهـا «روايـة الدولـة الديمقراطيـة الحليفـة للغـرب».

المراجع

(1) https://www.ohchr.org/ar/press-releases/2024/07/un-experts-declare-famine-has-spread-throughout-gaza-strip

(2) https://www.icj-cij.org/case/192

(3) https://www.ipcinfo.org/ipcinfo-website/alerts-archive/issue-97/en/

(4) https://www.reuters.com/world/middle-east/entire-population-gaza-continues-face-critical-risk-famine-global-hunger-monitor-2025-05-12/#:~:text=The%20IPC%20analysis%20found%20that,or%20%22catastrophic%22%2C%20levels.

(5) https://www.hrw.org/ar/news/2023/12/18/israel-starvation-used-weapon-war-gaza

(6) https://edition.cnn.com/2025/04/25/middleeast/un-wfp-gaza-food-israel-intl/index.html

(7) https://www.bbc.com/news/articles/czrv5rl73zdo

(8) https://www.reuters.com/investigates/special-report/famine-conditions-gaza/

(9) https://edition.cnn.com/2025/04/25/middleeast/un-wfp-gaza-food-israel-intl/index.html

(10) https://www.bbc.com/news/articles/czrv5rl73zdo

(11) https://www.nytimes.com/2024/04/11/world/middleeast/gaza-famine-hunger-crisis.html

(12) https://www.theguardian.com/commentisfree/2025/may/04/the-guardian-view-on-israels-aid-blockade-of-gaza-hunger-as-a-weapon-of-war

(13)https://institute.aljazeera.net/en/ajr/article/decolonise-how-humanitarian-journalism-no-ordinary-journalism

من «إعلان وفاة» إلى «مرثية».. كيف تطور النعي إعلاميا؟

المحفوظ فضيلي

أصبح النعي الإعلامي للشخصيات العامة المؤثرة نمطا/ جنسا صحفيا راسخا في الكثير من المؤسسات الإعلامية العالمية يتولاه كبار الصحفيين وأكثرهم خبرة ومعرفة. كيف تطورت هذه الممارسة وما أبرز سماتها المهنية؟ وإلى أي مدى يعتبر «تجهيز» النعي المسبق مقبولا من زاوية المعايير الأخلاقية؟

بعد فترة قصيرة فقط من موت ملكة بريطانيا إليزابيث الثانية، نشرت شبكة بي بي سي البريطانية نعيا مطولا يؤرخ لأهم اللحظات في مسارها. (1) كان النعي مبرمجا ضمن خطة واسعة للشبكة لمتابعة خبر موت الملكة، سُمّيت «جسر لندن».

تشكل أخبار الوفيات جزءا أساسيا من مضامين صناعة الإعلام عبر التاريخ، لكن معالجتها تطورت شكلا ومضمونا وفق تحولات الصحافة تقنيا وفنيا وأسلوبيا، وكذلك وفق اهتمامات وأولويات الجمهور في مختلف الأزمنة والأمكنة والسياقات الثقافية والسياسية.

وفي أولى التجارب الصحفية المرتبطة باختراع المطبعة بألمانيا في القرن الرابع عشر، كان للوفيات حيزها بشكل موجز للغاية، قبل أن تتطور في القرون اللاحقة في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا إلى شكل إعلانات موجزة.

وفي خضم الثورة الصناعية وما رافقها من تقدم علمي وتحولات اقتصادية وسياسية، بدأت الصحف في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا تولي الموضوع اهتماما أكبر وأصبحت تنشر - إضافة لإعلانات الوفاة الموجزة - مواد نعي بشكل أوسع، تتضمن معلومات أوفر عن الشخص الراحل وعن تشييع جنازته.

وزادت أهمية أخبار الوفيات في الولايات المتحدة على إيقاع الحرب الأهلية (1861-1865) ضمن الحاجة لإخبار الناس عن أقاربهم الذين قتلوا في المعارك.

وشكلت تلك المرحلة منعطفا نحو اكتساح أخبار الوفيات مساحة أوسع في الممارسة الصحفية وبدأت تتحول تدريجيا من مادة إعلانية إلى مادة صحفية متكاملة، قبل أن تترسخ في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

> **حرصت نيويورك تايمز في ممارستها على التمييز بين إشعار الوفاة كنص معلوماتي قصير غالبا ما يكون مأجورا باعتباره مادة ترويجية والنعي الذي يدخل ضمن اختصاص قسم الوفيات وفق ضوابط تحريرية وموضوعية وأسلوبية متفق عليها في إطار الخط التحريري العام للصحيفة، وتوجهاتها وخلفياتها السياسية والإيديولوجية.**

تجارب حديثة

وفي تجليات النعي في الصحافة المعاصرة، تفرض جريدة نيويورك تايمز الأميركية نفسها ضمن أولى المنابر التي أفردت حيزا خاصا لهذا الفن الصحفي منذ انطلاقتها في منتصف القرن التاسع عشر.
وطورت الصحيفة ذلك النهج إلى أن بات لها قسم خاص يشرف عليه محرر متمرس يضم صحفيين ذوي خبرات واسعة وتجارب طويلة.
وتحرص الصحيفة في ممارستها على التمييز بين إشعار الوفاة (نص معلوماتي قصير غالبا ما يكون مأجورا باعتباره مادة ترويجية) والنعي الذي يدخل ضمن اختصاص قسم الوفيات وفق ضوابط تحريرية وموضوعية وأسلوبية متفق عليها في إطار الخط التحريري العام للصحيفة، وتوجهاتها وخلفياتها السياسية والإيديولوجية.
كما تحرص الصحيفة على التمييز بين النعي وبين الرثاء. ويرى وليام ماكدونالد رئيس قسم الوفيات في نيويورك تايمز منذ عام 2006 في مقال توضيحي خاص أن مواد النعي يكتبها صحفيون متخصصون في شأن النعي (obituarists) لتسليط الضوء على «أهمية الشخص الراحل وما خلّفه من أثر والقصة التي يجسدها». (2)

نعي أم رثاء؟

على هذا النحو فإن تكريم الموتى ورثاؤهم متروك لمن يصفهم وليام ماكدونالد بالرثّائين أو كُتّاب المرثيات (eulogists)، وهم عادة مقربون من الراحل عائليا أو فكريا أو إيديولوجيا. وغالبا ما تركز مواد الرثاء على مناقب الراحل وخصاله وتكون ذات طبيعة ذاتية وفيها أحيانا نفس أدبي، وقد تكون من باب العرفان والوفاء للشخص الفقيد.

ومن أصل عشرات آلاف الأشخاص الذين يتوفون يوميا، لا تنشر صحيفة نيويورك تايمز تقريبا سوى ثلاث مواد «نعي» يوميا. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما هي الآلية المعتمدة لانتقاء من يستحقون «النعي» وما الهدف من «النعي» أصلا؟

في هذا السياق يقول وليام ماكدونالد إنه ليس من اختصاص الصحيفة أن تصدر الأحكام - لا إيجابا ولا سلبا - على المتوفين ممن يستحقون النعي، وإنما يكون التركيز في الغالب على



يتتبع مكانة مواد النعي في العديد من كبريات الصحف العالمية الناطقة بالإنجليزية والفرنسية وغيرها وبالنظر إلى التطور التحريري المتصل بالاهتمام بمواد النعي، يمكن القول إن «النعي» يتجه إلى أن يصبح شبه نوع/ جنس صحفي (تصوير: ديبتندو دوتا - غيتي).

منجزهم بغض النظر عن الموقف الأخلاقي منهم، اعتمادا على القيمة الإخبارية للشخص المعني.

النعي الاستباقي

وباتت كتابة مواد النعي في نيويورك تايمز وغيرها من المنابر الإعلامية العريقة والرصينة، تقليدا راسخا إلى درجة أنها تقوم بذلك استباقيا في بعض الأحيان وتبادر لإعداد مقالات نعي لأشخاص غادروا الفضاء العام أو اختفوا من سماء الأخبار لهذا السبب أو ذاك (إبعاد، إقصاء، تقاعد، اعتزال، مرض، تقدم في السن) وتنشرها فور وفاة صاحبها.

لكن تجهيز مواد النعي سلفا ينطوي على الكثير من المخاطر التحريرية؛ إذ يحصل أحيانا أنّ تلك المواد قد ترى طريقها للنشر بالخطأ فتكون النتيجة عكسية وكارثية بالمقاييس الخبرية (نشر خبر غير صحيح) والتحريرية (نشر مادة غير مكتملة الصياغة والتحرير).

وتشير إحصائية لصحيفة نيويورك تايمز أن الموقع الإلكتروني لإذاعة فرنسا الدولية نشر عن طريق الخطأ نحو 100 نعي مكتوب مسبقًا لشخصيات بارزة. (3)

لكن الحالة الأكثر تعبيرا عن أخطار تهيئة مواد النعي مسبقا هو بث تلفزيون بي بي سي بالخطأ خبر وفاة إليزابيث الثانية ملكة بريطانيا قبل رحيلها، وذلك من فرط الإعداد المتواصل منذ عدة عقود (ضمن خطة داخلية بعنوان «عملية جسر لندن») لتغطية وفاتها عندما تحصل فعليا.

أما في حال التخطيط الجديد والمحكم، فإن إعداد مود النعي سلفا يكون ذا جدوى مهنية عالية؛ إذ يوفر للمتلقي بسرعة مادة عميقة وثرية عن الشخصية الراحلة وإنجازاتها سلبا أو إيجابا.

ووفقا لويليام ماكدونالد فإن صحيفة نيويورك تايمز أعدت سلفا 1850 مادة نعي في حين تحتفظ صحيفة واشنطن بوست بنحو 900 منها، وفقا لمحرر النعي آدم بيرنشتاين.

وعلى سبيل المثال فقد نشرت نيويورك تايمز يوم 23 مارس 2022 على موقعها الإلكتروني نعيا مطولا لوزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت، بعد دقائق قليلة من إعلان وفاتها. (4)

وتشير الكثير من القرائن إلى أن النعي كان شبه جاهز؛ من قبيل حجمه (حوالي 3000 كلمة) وإشارات في متن المقال إلى أن العديد من الشهادات في حق الراحلة أخذت مسبقا للنشر في هذه المناسبة.

وحمل ذلك النعي توقيع روبيرت ماكفادن الذي اشتغل في الصحيفة 63 عاما، (5) وجاء في نبذة عنه بموقع الجريدة بأنه «في العقد الأخير قبل تقاعده في سبتمبر 2024، كان كاتبًا لمواد النعي الاستباقية التي يتم إعدادها للأشخاص البارزين أثناء حياتهم حتى يمكن نشرها بسرعة بعد وفاتهم».

وتضمّن نعي أولبرايت عرضا وافيا لأهم محطات حياتها وأبرزها، كما ورد في العنوان، أن الراحلة، ذات الأصول التشيكية، كانت أول امرأة تتولى وزارة الخارجية في الولايات

المتحدة وكان ذلك في عام 1997 في ظل إدارة الرئيس بيل كلينتون.

أما اللحظات الأكثر درامية، كما جاء في النعي، فهي الظروف التي غادرت فيها الطفلة مادلين بلدها تشيكوسلوفاكيا (كما كانت تسمى آنذاك) رفقة أسرتها في أجواء الحرب العالمية الثانية هربا من لهيب النازية.

ولم تكشف مادلين أولبرايت - وفق النعي - حقيقة أصولها اليهودية إلا بعد أن أصبحت وزيرة للخارجية؛ إذ إن والديها اعتنقا الكاثوليكية اتقاء شر النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية، وربّيا أطفالهما عليها دون أن يخبروهم عن أصلهم اليهودي.

«نعي» بنفس تاريخي

وبأسلوب يزاوج بين التقشف والتكثيف من جهة، والعمق والنفَس الأدبي من جهة أخرى، أفردت أسبوعية الإيكونوميست البريطانية لمواد النعي مكانا قارّا في الصفحة الأخيرة، وفق ضوابط إخراجية وبصرية وتحريرية ثابتة.

ورغم أنّ مواد النعي في الإيكونوميست - على غرار باقي المقالات الأخرى - غير موقّعة، فإن المجلة تشير في التعريف بطاقمها إلى أن آن رو التي التحقت بالمجلة عام 1976 هي من تتولى كتابة تلك المواد منذ عام 2003 بأسلوب يجمع بين النفَس الأدبي والسردي والصنعة الصحفية والهاجس التأريخي. (6)

وعن طريقة عملها واختياراتها، تقول آن رو - وهي حاصلة على دكتوراه في التاريخ وألفت عددا من كتب السيرة الغيرية -: «كل أسبوع أروي قصة حياة استثنائية؛ موضوعها شخصية معروفة أو شخصية أقل شهرة لكنها لا تقل استثنائية».

وفي حلقة نقاشية مع القراء على إحدى الحسابات الرقمية للمجلة، تقول آن رو: «أحاول كل أسبوع أن ألتقط جوهر شخص وأروي قصة حياته». (7)

> على هذا النحو فإن تكريم الموتى ورثاؤهم متروك لمن يصفهم وليام ماكدونالد بالرّثائين أو كُتّاب المرثيات (eulogists)، وهم عادة مقربون من الراحل عائليا أو فكريا أو إيديولوجيا. وغالبا ما تركز مواد الرثاء على مناقب الراحل وخصاله وتكون ذات طبيعة ذاتية وفيها أحيانا نفس أدبي، وقد تكون من باب العرفان والوفاء للشخص الفقيد.

وعلى سبيل المثال، فإن نعي الإيكونوميست لمادلين أولبرايت كان مختلفا عن مقاربة نيويورك تايمز شكلا ومضمونا؛ (8) إذ لم تحِد المجلة البريطانية عن قاعدتها بشأن الشكل والحجم (حوالي 1000 كلمة) وركزت على بصمتها النسائية وأسلوبها الخاص في قيادة الدبلوماسية الأميركية.

وتتجه المجلة البريطانية أحيانا إلى كسر القواعد المتعارف عليها في هذا المجال؛ فقد نعت في صيف عام 2009 سمكة اسمها بنسون كانت الأشهر في إنجلترا ونفقت وعمرها 25 عامًا. (9)

وفي الصحافة العربية، وتحديدا في الصحف العريقة (الأهرام المصرية، النهار اللبنانية..) ومواقعها الإلكترونية، لم يترسخ بعد فن النعي شكلا ومضمونا بالشكل المعمول به في كبريات الصحف العالمية.

والدارج أن تلك الصحف تتناول وفيات المشاهير من أهل السياسة والأعمال والرياضة والفنون بتغطيات متباينة باعتماد مختلف الأجناس الصحفية، إخبارا وتعليقا وتحليلا، ويتسع الأمر أحيانا إلى استقاء شهادات في حق الراحلين، والتوقف مليا عند محطات دالة أو مواقف خاصة في مسار الراحلين.

ويرى الأكاديمي المصري حسني محمد نصر في مقال عن الموضوع أن صحافة النعي «يمكن أن تمثل خطوة مهمة في اتجاه «أنسنة الصحافة». (10) وإعادة القراء إليها؛ إذ إن صحافة النعي الجيدة التي تمزج بين التاريخ وبين السيرة الذاتية وتثير مشاعر الحنين إلى الماضي يمكن أن تجذب عددا كبيرا من القراء».

وبخلاف «النعي» بصيغته الصحفية والتحريرية، تشترك معظم الصحف العربية مع نظيرتها في الغرب بنشر إعلانات الوفيات مقابل مبلغ مادي في إطار تجاري ربحي صرف.

وتفتح صحيفة الأهرام - على غرار صحف ومواقع عربية كثيرة - صفحاتها وموقعها الإلكتروني لمواد النعي من خلال وكيل إعلاني رسمي للجريدة يساعد المعنيين بالموضوع على نشر خبر نعي أو تعزية مقابل مصاريف معينة.

ويطــرح تطــور أخبــار الوفيــات مــن مــواد ذات طابــع إعلانــي وتجــاري صــرف إلــى مــادة صحفيــة قائمــة بذاتهــا الســؤال الأكاديمــي التالــي: هــل النعــي فــن صحفــي أو نــوع/ جنــس صحفــي مكتمــل الأركان على غــرار باقــي الأنــواع/ الأجنــاس الأخــرى مــن افتتاحيــة وتحقيــق وروبرتــاج وعمــود ومقــال، وبروفايــل (صــورة قلميــة) وغيرهــا؟

في كتابــه المرجعــي بعنــوان «الأجنـــاس الصحفيـــة - مفـــتاح الإعلام المهنــي» ، يصنــف الأكاديمــي المغربــي عبــد الوهــاب الرامــي إعلانــات الوفيــات إلــى جانــب إعلانــات الــولادات والــزواج ضمــن مــا يســميه الأجنــاس غيــر الصحفيــة وتحديــدا في مجــال الإشــهار والتســويق والترويــج. ولــم يشــر الخبيــر الإعلامــي المغربــي بشــكل واضــح وصريــح إلــى «النعــي» باعتبــاره جنســا قائمــا بذاتــه، ولــم يصنفــه حتــى ضمــن الأجنــاس غيــر الصحفيــة. (11)

لكــن النــوع الأقــرب إلى «النعــي» ضمن الأجنــاس الصحفيــة المتعــارف عليهــا مهنيــا وأكاديميــا هــو البورتريــه (صــورة قلميــة) بمــا يتطلبــه مــن مهــارات تتمثــل - حســب نفــس الكتــاب - في «القــدرة على التقــاط الجزئيــات الدالــة وتعقــب المســارات، وامــتلاك أدوات القــراءة النفســية والنفس-اجتماعيــة، والتمتّــع بمــؤهلات أســلوبية». (12)

ويكمــن الفــارق بيــن البورتريــه والنعي في أن الأول موضوعــه شــخص على قيــد الحيــاة ويركــز على الكثيــر مــن ملامحــه وإنجازاتــه ومواقفــه ومناطــق الظــل والضــوء في حياتــه بمــا يتطلبــه ذلــك مــن وصــف، وســرد وتركيــب وتجميــع. أمــا النعــي فيكــون التركيــز فيــه منصبــا في الغالــب على مناقــب الراحــل ومنجــزه ومــا ســيتركه مــن أثــر مــادي ومعنــوي، ســواء كان إيجابيــا أو ســلبيا.

ومــن ناحيــة المضمــون، يضــع الأكاديمــي المصــري حســني محمــد نصــر مــواد النعــي ضمــن «الصحافــة الإنســانية التــي تولــي الإنســان اهتماما أكبــر في حياتــه وعنــد وفاتــه».

ويعتقــد محمــد نصــر في مقــال عــن الموضــوع أن صحافــة النعــي «إذا قُدمــت بشــكل جيــد وجــاذب يمكــن أن تســهم في عــودة القــراء إلــى الصحافــة بمنصاتهــا المختلفــة»، (13) داعيــا الصحافــة العربيــة إلــى الاهتمام بــأن تكــون «أكثــر إنســانية، عبــر الاهتمــام بصفحــات نعــي الموتــى مــن المشــاهير وغيــر المشــاهير مــن أفــراد المجتمــع، وعــدم تجاهــل مــن رحلــوا عــن عالمنــا».

قريبا من الأدب

وبتتبــع مكانــة مــواد النعــي في العديــد مــن كبريــات الصحــف العالميــة الناطقــة بالإنجليزيــة والفرنســية وغيرهــا وبالنظــر إلــى التطــور التحريري المتصــل بالاهتمــام بمــواد النعــي ومــا



إذا شئنا توسيع مجال المقارنة بين النعي وفنون أخرى من الكتابة والإبداع، فإن ما يتبادر للذهن هو أوجه التشابه الكثيرة بين النعي وفن السيرة الغيرية (biography) باعتبارها «مسار حياة» وفق التعريف الكلاسيكي للسيرة بمفهومها الأدبي (كريستوف سودر - غيتي).

يحظى بـه الموضـوع مـن عناية واهتمـام في إطـار هيكلة المؤسسـات، يمكـن القـول إن «النعـي» يتجه إلى أن يصبح شبه نـوع/ جنـس صحفـي.

لكن الحالة الأكثر تعبيرا عن أخطار تهيئة مواد النعي مسبقا هو بث تلفزيون بي بي سي بالخطأ خبر وفاة إليزابيث الثانية ملكة بريطانيا قبل رحيلها، وذلك من فرط الإعداد المتواصل منذ عدة عقود (ضمن خطة داخلية بعنوان «عملية جسر لندن») لتغطية وفاتها عندما تحصل فعليا.

أما في حـال إمعـان النظـر في أسـلوب وصياغـة ولغـة وبنـاء بعـض مـواد النعـي عندما تحمل توقيع صحفيين مخضرمين يتمتعون بتجربة كبيرة، لا يسع المهتم أو القـارئ إلا أن يعتبـر تلـك «المقـالات» نوعـا صحفيا مسـتقلا لـه خصائصه الأسـلوبية والتركيبيـة والسـردية. وإذا شـئنا توسـيع مجـال المقارنـة بيـن النعـي وفنـون أخـرى مـن الكتابـة والإبـداع، فـإن مـا يتبـادر للذهـن هـو أوجـه التشـابه الكثيـرة بيـن النعـي وفـن السـيرة الغيرية (biography) باعتبارها «مسار حياة» وفـق التعريـف الكلاسـيكي للسـيرة بمفهومهـا الأدبـي.

ويجـد هـذا التشـابه جـزءا مـن صدقيتـه المهنية في كـون الكثيـر مـن كتـاب السـير الغيريـة هـم في أحيـان كثيـرة صحفيـون تخصصوا في مجـالات معينـة وأصبحـوا مقربيـن بطريقـة أو بأخـرى مـن شـخصيات متميـزة في ذلـك المجـال وحولـوا ذلـك القـرب إلـى مدخـل لكتابـة سـيرها بعـد رحيلها أو قبـل مماتها أحيانـا.

إعلامـي مغربـي مقيـم بالولايـات المتحـدة، خريـج المعهـد العالـي للإعلام والاتصـال بالربـاط عـام 1997. اشـتغل في عـدة منابـر مغربيـة، قبـل الانتقـال إلـى قطـر عـام 2003 حيـث أمضى في موقـع الجزيـرة نـت 17 عامـا تولـى خلالهـا عـدة مهـام وتـم انتدابـه لتغطيـة عـدد مـن مناطـق النـزاع. وفي عـام 2020 انضم إلـى تلفزيـون قطـر قبـل أن يلتحـق في العـام التالـي بإحـدى المنصـات الرقميـة التابعـة لقنـاة الحـرة في الولايـات المتحـدة.

المراجع

(1) https://www.bbc.com/news/uk61605149-
(2) https://www.nytimes.com/08/03/2018/obituaries/overlooked-from-the-death-desk-why-most-obits-are-still-of-white-men.html
(3) https://www.washingtonpost.com/lifestyle/media/media-advance-celebrity-obituaries/36/16/11/2021d9a79a-1596-11ec-b-976f4a43b740aeb_story.html
(4) https://www.nytimes.com/23/03/2022/us/madeleine-albright-dead.html
(5) https://www.nytimes.com/by/robert-d-mcfadden
(6) https://mediadirectory.economist.com/people/ann-wroe/
(7) https://www.reddit.com/r/IAmA/comments/b66bj7/hello_im_ann_wroe_and_ive_been_writing_the/
(8) https://www.economist.com/obituary/02/04/2022/madeleine-albright-saw-herself-as-an-ambassador-for-freedom
(9) https://www.economist.com/obituary/13/08/2009/benson
(10) https://shorturl.at/6Fpdn

(11) الرامـي، عبـد الوهـاب. الأجنـاس الصحفيـة: مفتـاح الإعلام المهني. الربـاط: المنظمـة الإسلامية للتربيـة والعلـوم والثقافـة - إيسيسـكو، 2011.
(12) الرامي، الأجناس الصحفية: مفتاح الإعلام المهني، 38.
(13) https://shorturl.at/4utqo

ظاهرة «تجنب الأخبار».. هل بتنا نعرف أكثر مما ينبغي؟

وسام كمال

رصدت الكثير من التقارير تفشي ظاهرة «تجنب الأخبار» بسبب الضغوط النفسية الشديدة وصلت حد الإجهاد النفسي نتيجة تلقي كميات ضخمة من الأخبار والمعلومات. ما تأثيرات هذه الظاهرة على غرف الأخبار؟ وكيف يمكن التعامل معها؟

قبــل عقــود تنبــأ المفكــر الكنــدي مارشـال ماكلوهـان بـأن تطـور وسـائل الإعلام سـيحول العالـم الشاسـع إلـى «قريـة صغيـرة»، ومـن مشـاكل هـذه القريـة أن أهلهـا منشـغلون ببعضهـم البعـض، وفاقـة أحدهـم تنخـر فـي وجـدان الآخـر. فعندمـا وقـع زلـزال فـي تركيـا تحولـت أنظـار العالـم إلـى المأسـاة الإنسـانية، وعندمـا اجتـاح إعصـار ميلتـون ولايـة فلوريـدا الأمريكيـة ظهـرت دعـوات فـي أنحـاء الأرض للصـلاة والدعـاء مـن أجـل سـكان الولايـة، وقـد تابـع العالـم لحظـة بلحظـة انـدلاع الحـرب الأوكرانيـة الروسـية ومحنـة المدنييـن واللاجئيـن، وفطـرت مأسـاة غـزة قلـوب الملاييـن حـول العالـم وأحدثت سلسـلة مـن الـزلازل السياسـية.

يسـهل هـذا التقـارب العالمـي التواصل ويعـزز أهميـة متابعـة الأخبار الدوليـة إلـى قـدر يتجـاوز المحليـة أحيانـا، خاصـة أن بعـض الأحـداث أصبحـت مترابطـة ولهـا تأثيـرات على أي مواطـن فـي كل العالـم.

هكـذا زادت الحمولـة النفسـية على المتابـع بسـبب متابعـة الكثيـر مـن الأخبـار التـي قـد لا تتصـل بـه بشـكل مباشـر. فهـل بتنـا نعـرف أكثـر ممـا ينبغـي؟

39٪ هــي نسـبة الأشـخاص الذيـن يتجنبـون الأخبـار فـي عـام 2024 على مسـتوى العالـم، مقارنـة بنسـبة 29 بالمئـة فـي عـام 2017، وفقـا لتقريـر (1) معهـد رويتـرز لدراسـات الصحافـة. خلال العقـد الماضـي انتشـرت ظاهـرة إرهاق الأخبـار «News Fatigue»، وهـي حـالـة إجـهـاد نفسـي تحـدث نتيجـة تلقـي كميـات ضخمـة مـن الأخبـار والمعلومـات، والتدفـق المتواصـل للمحتـوى الإخبـاري عبـر وسـائل الإعلام ومنصـات وسـائل التواصل الاجتماعي. بـرزت هـذه الظاهـرة بشـدة خلال أزمة كورونـا مـع تزايـد حـالات الوفيـات والإحسـاس الطاغـي بتوقـف الحيـاة واقتـراب نهايـة العالـم، ثـم تبعتهـا الحـرب الروسـية الأوكرانيـة، والحـرب الإسـرائيلية على غـزة، وما تلاها مـن مـآس وإبـادة للمدنييـن.

يختلـف النـاس فـي كيفيـة تلقـي الأخبـار؛ فبعضهـم لا يتأثـر بشـدة مـن متابعـة الأحـداث ولا تربكـه وجدانيـا، وآخـرون تصيبهـم هشاشـة نفسـية مـن متابعتهـا، وقـد تثـور لـدى البعض رغبـة فـي رفـع الظلـم أو الأذى عـن صاحـب القصـة، أو لحادثـة فسـاد أو حتـى «ترنـد» مسـتفز، بـل إن النـاس حتى الصحفيين – ولا أسـتثني نفسـي – تسـاورهم رغبـة مـن فتـرة لأخـرى في التوقـف عـن ملاحقـة الأخبـار للحفـاظ على صحتهـم النفسـية.

> تتسرب حالة من الإرباك النفسي والتوتر إلى المتابع نتيجة التعرض إلى شحنات عاطفية متضاربة، وتتسبب الأخبار السلبية في التوتر والقلق الذي قد يصل بالمرء إلى الاكتئاب وربما الوسواس القهري، ودوامة من المشاعر المظلمة. ذلك لأن الجمهور لم يعد يتابع الحدث فقط، ولكنه يعايش القصص الإنسانية وربما يختبر مشاعر أبطالها وضحاياها.

تخمة استهلاك الأخبار

كان القـارئ قبـل عقديـن يشـتري صحيفـة أو اثنتيـن، ويتابـع نشـرة إخباريـة على شاشـة التلفزيـون، وتنتهـي في العـادة متابعتـه للأخبار عنـد ذلـك الحـد. أما الآن فتشـكل كل وسـيلة إعلاميـة حديثـة عـادات جديـدة لـدى جمهورهـا، وربمـا يكـون الهاتـف أكثـر الوسـائل تأثيـرا في حيـاة مسـتخدميها. يفـرض تدفـق الأخبـار وتداولهـا على كلّ المنصـات والوسـائط حالـة تكثيـف في متابعـة الأخبـار والاسـتمرار في مشـاهدة الحـدث عـدة مـرات على مـدار أيـام حتـى تنتهـي ذروتـه.

على هـذا الأسـاس، بـدأ الحديـث عـن «قلـق فومـو FOMO»، أي اضطـراب الخـوف مـن تفويـت أي شـيء «Fear Of Missing Out» إلـى ملاحقـة الأخبار وزيـادة اسـتهلاكها عبـر منصـات التواصل الاجتماعـي. ويمكـن الحديـث فـي هـذا السـياق على نوعيـن مـن التخمـة: زيـادة فـي عـدد الأخبـار، وتكثيـف في المضمـون؛ وهـذا يخلـق حالـة مـن الضغـط النفسـي أحيانـا على المتلقـي، خاصـة مـع كثافـة اسـتخدام الإنترنـت بصفـة عامـة والهاتـف بصفـة خاصـة.

لقـد رصـدت إحصائيـة حديثـة في 2024 (2) أن متوسـط اسـتخدام الإنسـان للإنترنـت يوميـا على مسـتوى العالـم 6 سـاعات و38 دقيقـة بينمـا تـؤدي عـادات التصفـح دورا كبيـرا في زيـادة اسـتهلاك الأخبـار؛ على سـبيل المثـال يتفقـد الأمريكيـون هواتفهـم في اليـوم 144 مـرة وفقـا لإحصائيـة في عـام 2023،(3) وكلما زادت مـرات تفقـد الهاتـف؛ زاد معـدل اسـتهلاك الأخبـار.

كما رصـدت نتائـج دراسـة جماعيـة (4) أجريـت عــام 2020 على 503 طلاب جامعييـن (54,5٪ إنـاث، 45,5٪ ذكـور) تتـراوح أعمارهـم بيـن 18 و40 عامًـا، الارتبـاطَ بيـن الخـوف مـن تفويـت شـيء وإدمـان الأخبـار عبـر الإنترنـت، وبالطبـع لـم

تنف الدراسة تأثير جائحة كورونا وقتذاك، وفي عام 2022 تناولت دراسة أخرى (5) المخاطر النفسية لاضطراب «فومو» الذي تتربح منه شركات مواقع التواصل الاجتماعي تريليونات الدولارات، واقترح الباحثون المشاركون فيها توعية المستخدمين بتجربة «متعة التفويت the joy of missing out (JOMO) بعد أن أنهكهم نفسيا وعقليا اضطراب الخوف من تفويت شيء.

> خلال العقد الماضي انتشرت ظاهرة إرهاق الأخبار «News Fatigue»، وهي حالة إجهاد نفسي تحدث نتيجة تلقي كميات ضخمة من الأخبار والمعلومات، والتدفق المتواصل للمحتوى الإخباري عبر وسائل الإعلام ومنصات وسائل التواصل الاجتماعي.

بناء عليه، لا تخلو متابعة الأخبار السلبية من تبعات نفسية، فيمكن تخيل الحالة النفسية التي قد تصيب شخصا تابع عدة قصص قبل نومه أو بداية استيقاظه من النوم: زواج أحد الأقارب، وفاة صديق، غرق قارب مهاجرين، لحظة هبوط كارثي لطائرة، بكاء أم على طفلها، طفلة فلسطينية تحمل أختها المصابة، تصريح مثير لمسؤول، طوفان من أخبار الزواج والطلاق للفنانين، ما الأثر النفسي الذي يتركه هذا الكم من المنشورات المختلفة في نفسه؟

تتسرب حالة من الإرباك النفسي والتوتر إلى المتابع نتيجة التعرض إلى شحنات عاطفية متضاربة، وتتسبب الأخبار السلبية في التوتر والقلق الذي قد يصل بالمرء إلى الاكتئاب وربما الوسواس القهري، ودوامة من المشاعر المظلمة. ذلك لأن الجمهور لم يعد يتابع الحدث فقط، ولكنه يعايش القصص الإنسانية وربما يختبر مشاعر أبطالها وضحاياها أثناء مشاهدة فيديوهات إخبارية للدقائق الأخيرة في حياة إنسان قبل غرقه أو انتحاره، ولحظات سقوط طائرة أو اصطدام قطار إضافة إلى سيل من مشاهد الشهداء والمصابين والمكلومين.

تشير دراسات عدة إلى أن متابعة الأحداث العنيفة تؤثر على الصحة النفسية للجمهور وتخلق استجابات عاطفية مكثفة ونظرة مشوهة إلى العالم، وتزيد من القلق لأنها تجعل العالم يبدو أكثر عدائية ومليئًا بالجريمة، ويتسبب الشعور بالقلق في اضطرابات النوم وصعوبات التركيز والاكتئاب. ولعله من المهم الاستشهاد بنظرية مارشال ماكلوهان حول القرية الصغيرة في سياق الكثير من الأزمات التي عرفها العالم في السنوات الأخيرة مثل الحرب الروسية الأوكرانية التي ألقت بظلالها على أسعار القمح وبعض المنتجات حول العالم، وكذلك تأثرت السوق العالمية، وتأثرت فروع الشركات الشهيرة العابرة للقارات مثل سلاسل ستاربكس وماكدونالز وكنتاكي وكوكاكولا بالمقاطعة بسبب الحرب على غزة.

لذلك، زادت الحمولة النفسية على المتابع بسبب متابعة الكثير من الأخبار التي قد لا تتصل به بشكل مباشر. فهل بتنا نعرف أكثر مما ينبغي؟

على سبيل المثال تتحفظ شركات مواقع التواصل بشأن الإدلاء بمعلومات



واضحة حول آلية عمل الخوارزميات على منصاتها لعدة أسباب؛ على رأسها دفع منتجي المحتوى إلى تأدية مبالغ مالية من أجل وصول منشوراتهم إلى المستخدمين لزيادة التفاعل. كما يقيد المناخ السياسي السائد المحتوى الإعلامي وفقا لتحيزاته؛ فقد اعترفت منصة إكس (تويتر سابقا) بتحيز خوارزمياتها للسياسيين اليمينيين عام 2021. (6) أما في يناير 2025 (7) أقر مارك



39٪ هي نسبة الأشخاص الذين يتجنبون الأخبار في عام 2024 على مستوى العالم، مقارنة بنسبة 29 بالمئة في عام 2017، وفقا لتقرير معهد رويترز لدراسات الصحافة (شترستوك).

زوكربيرغ بقيام شركة ميتا بوضع قيود على المحتوى وعبّر عن خطته للتخفيف منها مستقبلا. ورغم غياب معلومات دقيقة حول آلية عمل خوارزميات الشبكات الاجتماعية، إلا أن الملاحظة اليومية لتدفق المحتوى على المنصات تشير إلى أن المنشورات والفيديوهات الأكثر تفاعلا تحظى بأولوية على الصفحة الرئيسية (التايم لاين timeline) لدى المستخدمين.

على هذا النحو، يتيح فضاء الإنترنت الحصول على المعلومات بسهولة وتدفق الأخبار والمحتوى لحظيا لكن هذه النعمة تنقلب أحيانا إلى نقمة مع فوضى نشر الأخبار والفيديوهات والصور المضللة عن عمد أو بشكل غير مقصود. وقد يتسبب اختلاط المحتوى الجيد بغير الجيد في خلق حالة من التشكك لدى بعض المتلقين في الأخبار على الإنترنت، ولذا أعادت الأخبار المضللة الاعتماد على وسائل الإعلام الرئيسية لدى قطاعات من الجمهور.

لا توجد نصائح قاطعة لمواجهة هذه الظاهرة، بيد أنه «لكل فعل، رد فعل، مساو له في المقدار ومقابل له في الاتجاه»، هذا أحد قوانين الفيزياء، ولكنه ينطبق على الأخبار أحيانا مع تخمة المتابعة وإدمان التكنولوجيا؛ فقد

ظهـرت نصائـح للحـد مـن الإفـراط في المتابعـة وتحصيـن النفـس مـن الأخبـار المؤلمـة، وسـبل الاستشـفاء النفسـي مـن التأثيـرات السـلبية لمواقـع التواصـل، فيمـا أصبـح يسـمى الصيـام عـن «الدوباميـن». (8)

> تناولت إحدى الدراسات المخاطر النفسية لاضطراب «فومو» الذي تتربح منه شركات مواقع التواصل الاجتماعي تريليونات الدولارات، واقترح الباحثون المشاركون فيها توعية المستخدمين بتجربة «متعة التفويت» the joy of missing out (JOMO) بعد أن أنهكهم نفسيا وعقليا اضطراب الخوف من تفويت شيء.

وأعتقـد أن ظاهـرة تجنـب الأخبـار ليسـت مقتصـرة على محاولـة الهـروب مـن الإحبـاط والطاقـة السـلبية التـي تبثهـا الأخبـار الحزينـة أو المفجعـة فقـط، وإنمـا مرتبطـة بعوامـل أخـرى مثـل إدمـان التكنولوجيـا والإنترنـت وانتشـار التوعيـة بضـرورة إدارة وقـت اسـتخدام الهواتـف وتصفـح الإنترنـت ومحاربـة التشـتت وإضاعـة الوقـت. وعلى الصحفييـن أن يأخـذوا في الاعتبـار التأثيـرات النفسـية السـلبية لضغـط الأخبـار المفجعـة على المتلقيـن. ولعلـه مـن الحلـول المطروحـة التـوازن في التغطيـة بيـن الأحـداث المأسـاوية والقصـص «الإيجابيـة» وبـث بعـض الأمـل في نفـوس النـاس وسـط طوفـان الأخبـار السـلبية. ولا أقصـد بالأخبـار السـارة القفـز على القيمـة الخبرية أو إعـادة ترتيـب الأجنـدة داخـل غـرف الأخبـار؛ فصحيـح أن الأحـداث تفـرض نفسـها على أجنـدة الصحفييـن، وتقـود القيـمُ الخبريـةُ عمليـة انتقـاء الأخبـار، ولكـن المسـؤولية الاجتماعيـة تقتضـي على الصحفـي البحـث عـن محتـوى يحتاجـه الجمهـور أيضـا، وعـدم الاكتفـاء بالفيديوهـات الرائجـة والأحـداث اللحظيـة فقـط، بـل لا بـد مـن النبـش عـن موضوعات تهـم الجمهـور وتلهمه وتطـور حياتـه، مثـل قصـص النجـاح والأخبـار المجتمعيـة والزوايا الإنسـانية في التغطيـات اليوميـة، والأخبـار التي تسـلط الضـوء على فـرص جديـدة في مجـالات الحيـاة المختلفـة كالعمـل والاقتصـاد والسـفر ومحاربـة الأمـراض وقـرب نهايـة الكـوارث والحـروب. كمـا أنـه مـن الضـروري مراجعـة السياسـة التحريريـة للأخبـار مـن فتـرة لأخـرى؛ مـن حيـث اختيـار الموضوعـات وطريقـة إنتـاج القصـص ونشـرها، مـع وضـع المتابعيـن الهشّـين نفسـيا في الاعتبـار، وذلـك مـن خلال المحـددات التاليـة:

- وضـع تحذيـر في بدايـة الفيديوهات التـي تحتـوي على مشـاهد قاسـية وعـدم الإفـراط فيهـا وإخفـاء أجـزاء الجسـد المصابـة والدمـاء.

- انتقـاء القصـص الإخبارية بمسـؤولية اجتماعيـة وعـدم الانجـراف دومـا وراء «الترنـد».

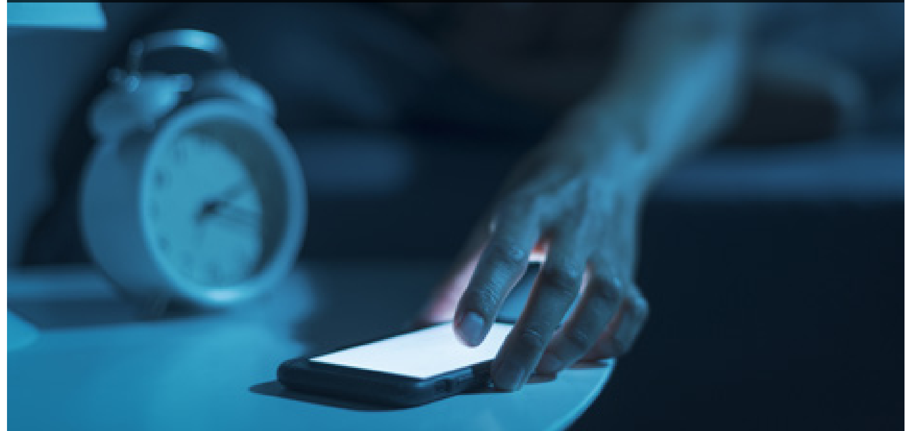
- اسـتخدام خاصيـة القصـص اليوميـة «السـتوري» في الأخبـار التـي لا ينبغـي أن تعيـش طـويلا على الصفحـة الرئيسـية «التايـم لايـن Timeline».

- عقـد اجتماعـات تحريريـة لمناقشـة المحتـوى، والبحـث عـن خطة مناسـبة تحافـظ على انتبـاه القـارئ وتخاطـب اهتماماتـه، وتقـدم فائـدة وقيمـة مضافـة إليـه.

3- تخصيـص المحتـوى وإصـدار نسـخة إخباريـة مخففـة:

تتيـح تطبيقـات بعـض الصحـف الإخباريـة تخصيـص المحتـوى للقـارئ

ظاهرة تجنب الأخبار ليست مقتصرة على محاولة الهروب من الإحباط والطاقة السلبية التي تبثها الأخبار الحزينة أو المفجعة فقط، وإنما مرتبطة بعوامل أخرى مثل إدمان التكنولوجيا والإنترنت وانتشار التوعية بضرورة إدارة وقت استخدام الهواتف وتصفح الإنترنت ومحاربة التشتت وإضاعة الوقت (تصوير: تشانغ بنغ - غيتي).



بمـا يلبـي اهتماماتـه، مثـل تطبيـق «نبـض» (9) على سـبيل المثـال، كمـا تصـدر بعـض المواقـع الإخباريـة نُسـخا إخباريـة مخففـة lite تحتـوي على الأخبـار المنوعة التي تسـتهدف أساسا الجمهـور الشـابّ والمراهقيـن، وأبـرز مثـال على هـذا صحيفـة «المصـري اليـوم» المصرية التـي أصـدرت موقع «المصـري اليـوم لايـت»، (10) كمـا يمكن للصحـف أيضا أن ترسـل نشـرات إخبارية بشـكل دوري يناسـب جمهورهـا، تحتوي على الموضوعـات التـي يفضلهـا، وبهذا قـد تنجـح الصحـف في اسـتعادة الجمهـور الهـارب مـن الأخبـار اليوميـة وتقلـل المحتـوى غيـر المرغـوب فيـه أو المـؤذي لبعـض المتابعيـن.

أرى أنــه على كل وســيلة إعلاميــة أن تحمـل على عاتقها مسـؤولية» التربية الإعلاميـة» وتثقيـف جمهورهـا إعلاميا كجـزء مـن رسـالتها ومسـؤوليتها الاجتماعيـة في عالـم مفتـوح. هـذه خطـوة مهمـة لتوعيـة الجمهـور بخطـر انتشـار الأخبـار المضللـة، وطريقـة فـرز الأخبـار، وإدارة وقـت اسـتخدام وسـائل الإعلام، وكيفيـة تجنـب الوصـول إلـى حالـة الإرهـاق الإخبـاري، وإرشـاد الأبنـاء والمراهقيـن للتعامـل مـع الأخبـار على الإنترنـت، وتقنيـن وقـت اسـتخدام الهواتـف الذكيـة وانتقـاء المنصـات ذات المصداقيـة.

المراجع

(1) https://reutersinstitute.politics.ox.ac.uk/digital-news-report/2024/dnr-executive-summary

(2) https://www.statista.com/statistics/1380282/daily-time-spent-online-global/

(3) https://www.reviews.org/mobile/cell-phone-addiction/

(4) https://ojcmt.net/article/online-news-addiction-future-anxiety-fear-of-missing-out-on-news-and-interpersonal-trust-contribute10822-

(5) https://onlinelibrary.wiley.com/doi/abs/10,1111/joca.12476

(6) https://www.theguardian.com/technology/2021/oct/22/twitter-admits-bias-in-algorithm-for-rightwing-politicians-and-news-outlets

(7) https://l1nq.com/gWlnk

(8) https://www.aljazeera.net/lifestyle/12/3/2021/٪D٪85٪9D٪8A٪7D٪8B٪0D٪8A-7٪D٪8AA٪D٪8B٪9D٪8B٪1D٪-81٪9D٪8B٪9D٪-86٪9D٪8B٪5D8٪9A٪D٪8A٪7D٪-85٪9D٪8A7٪D٪84٪9D٪8AF٪D٪88٪9D٪8A٪8D٪8A٪7D٪85٪9D8٪9A٪D٪-86٪9D٪83٪9D8٪9A٪D-81٪9٪D٪8AA٪D٪8B٪9D8٪9A٪D٪8B4

(9) https://nabd.com/

(10) https://lite.almasryalyoum.com/